طلعنا عالحريّة

حرية ، كرامة، مواطنة

العدد 100

2021 / 11 / 20

مجلة شهرية، سياسية، ثقافية، مستقلة

اغتيال الأمل

افتتاحية العدد بقلم أسامة نصّار

في مجموعة دردشة لسوريين في الشتات، ناشط كان منخرطاً في الثورة بكل تفاصيلها قبل أن يغادر البلد يسأل جاداً: "ما هو الوضع في شمال سوريا المحرر؟ هل لا زالت هناك فصائل؟ وما هو "الجيش الوطني"؟

ليجيبه آخر مثله: "لا أعرف أيّ شيء عن الوضع في الشمال، ولا في الجنوب ولا في الوسط، ولا حتى في قريتنا.. آخر ما سمعته عن البلد هو خبر وفاة صباح فخري!"

تعقّب زميلة أخرى في نفس المجموعة ومن نفس الخلفية: "لم أعد أتابع شيئاً من الأخبار.. لا المحلية ولا العالمية.. لكن سمعت عن عودة رفعت أسد إلى سوريا! وأسمع عن مشاكل عنصرية للسوريين في تركيا وعن شيء اسمه "البطاقة الذكية" في المناطق التي يسيطر عليها النظام.. وغير ذلك، وغير أخبار كورونا التي انحشرت في كل تفاصيلنا اليومية، لا وقت -ولا ذهن- عندي لأي شيء آخر".

من مثل هذه العينة، كيف يمكننا تفسير فقدان الكثيرين لحماسهم تجاه القضايا العامة؟

لو سألنا الناشط العادي أو الناشطة العادية، لماذا تغيرت طبيعة ارتباطك وتفاعلك مع الأخبار والأحداث، ستأتي الإجابة سيلاً من "وجع الراس" والأخبار السيئة التي يعرفها بالضرورة من يتابع أو لايتابع الصحافة والميديا، مثل:

سيف الإسلام معمّر القذافي يقدّم ملفَ ترشيحه لرئاسة ليبيا، ويظهر مرتدياً نفس بردة أبيه البنية القبيحة، بما في ذلك من إيماءات جلية بأن شيئاً لم يتغير بل (لن) يتغير بعد ثوراتكم، وأن برنامجي السياسي هو أن "أعيش في جلباب أبي"، وهذا ما أريده لليبيا والشعب الليبي!

ورغد صدام حسين تبارك للمذكور، وتتمنى عودة الأمجاد والأيام الخوالي، وأن يعيد "أخوها الغالي" سيف الإسلام ليبيا "إلى موقعها الحقيقي"!

وفي مصر السيساوية تستمر محاكمات وتمديدات سجن للناشطين المصريين، وإعادة الاعتبار لكل ما يتعلق بحقبة نظام مبارك.

عندنا في سوريا، ومرة أخرى، ابنة ماهر الأسد تفوز بالمركز الأول والثاني (معاً) في مسابقة للفروسية، وتترك الجائزة الثالثة والفتات لباقي الخدم.. التقليديين أيضاً!

شركة مشغل الاتصالات، بجانب العتيدة سيرياتل تُسمى "إيماتل" و"إيما" هو اسم الدلع التي كانت تدعى به أسماء الأخرس أثناء إقامتها في بريطانيا، قبل أن تعود لسوريا فتصبح "أسماء الأسد"، بخلاف العرف السوري الذي تحتفظ فيه المرأة باسم عائلتها بعد زواجها ولا تُنسب لزوجها.

ولا يبدو أن عودة النظام السوري إلى الجامعة العربية أمراً بعيداً؛ فها هي الإمارات تقود حملة التطبيع مع النظام، وليست بمفارقة أبداً أنها أيضاً تقود حملة التطبيع مع "إسرائيل"، فقد بات واضحاً تماماً كم هي "إسرائيل" ضرورية للنظام وللمنطقة.. وكم هو بقاء النظام وحلف الممانعة ضروري لإسرائيل.. و"الممانعة" الأمريكية لحملة التطبيع مع النظام تبدو شكلية تماماً؛ إذ أصبح من السهل التمييز متى يقول الأمريكان "لا" حيث لا يقصدون بها إلا "نعم".

وبالمجمل يمكن القول إن ما عمل عليه النظام الدولي خلال العقد المنصرم وحتى الآن ما هو إلا قتل الأمل وتأبيد اليأس لدى الشعوب المقهورة، وإطفاء أي بصيص من الضوء في آخر النفق: ستبقون كما أنتم، وستبقى الأنظمة شكلاً ومضموناً كما هي، حتى بشخوصها إلى أبد الآبدين. واليأس وموت الأمل لا يعني في النهاية إلا العزوف عن الهمّ العام، واللهاث وراء أي إمكانية يمكن أن تتاح للخلاص الفردي.

ومن أجل مزيد من الموضوعية، ربما صار لزاماً أن نعترف بهذا أمراً واقعاً؛ فنقول إن الربيع العربي قد فشل، وانهزمت الثورات كلها، رغم تغيرات كبيرة تحققت في عقد الربيع العربي، سواء في دول الثورات أو غيرها، وسنختلف أو نتفق على تقييم نجاح وفشل الثورات بالمجمل، أو عند دراسة كل واحدة على حدة، ولكن ما ينبغي الحذر منه هو أن تجرنا هذه "الموضوعية" إلى الركون لإدانة جذرية للجوهر الإنساني الذي قامت عليه كل انتفاضات الشعوب؛ بأن الكرامة حق لكل إنسان، وأن الحرية حق لكل إنسان، وأن الناس كلهم سواء.

طلعنا عالحريّة

شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net

- المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
- المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار

نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت

facebook.com/rising4freedom

twitter.com/freedomraise

freedomraise@gmail.com

المدير الإداري	الغلاف	كاريكاتير	أمن رقمي ومحاسبة	زملاء مختطفون في سوريا
معتصم أبو الشامات	سمير خليلي	سمير خليلي / هاني عبّاس	وائل موسى	رزان زيتونة - ناظم حمادي

مشقة حياة!

جمال الشوفي

ليتها كانت مشقّة حياة وحسب! وليتها كانت مجرد صورة عابرة! أو مشهداً عابراً في حياتنا. كانت عنوان طوفان سوري عام.

لم يكن العنوان موفقاً، ومع هذا حققت الصورة جائزة عالمية الشهر الفائت! "مشقة حياة" عنوان غير موفق لصورة لأب سوري مبتور القدم يحمل طفله الذي ولد بلا أطراف بفرح عارم، التقطها المصور التركي محمد أصلان في قرية الريحانية على الحدود السورية التركية. وقد تناقلت وسائل الاعلام فوز هذه الصورة بجائزة صورة العام 2021 بمسابقة SIPA الدولية للصور. لتشير إلى المعنى الإنساني والعاطفي المحتوى فيها، مجسدة وبحرفية عواطف الأب "منذر النزال" مبتور القدم وهو يبتسم لـ"مصطفى"؛ طفله الذي ولد معاقاً بلا أطراف!

لم تكن مشقّة حياة وحسب. بل إحدى أوجهها فقط، وإلا افترضنا أن حياة النزال وابنه ومثلهما ملايين السوريين باتت طبيعية بتهجيرهم وتشتتهم، وكل ما يعانونه بضع مشقات من الحياة الطبيعية؛ كتشوه خلقي استثنائي، أو إعاقة جسدية أو نفسية مألوفة بنسبها الطبيعية في أي مجتمع!

كان الأجدر تسميتها "الطوفان والنكبة السورية"، "الكارثة السورية"! فالأب واحد من الآلاف الذين باتوا معاقين بفعل القصف والدمار الذي استمر لأعوام ولم ينتهِ بعد لليوم، في أريحا وعفرين وربما غيرهما، ومجريات الأيام القادمة ستفصح عن المزيد! والطفل واحد من مليون طفل سوري بات يتيماً أو معاقاً أو وُلد مشوهاً، وذلك حسب تقارير الأمم المتحدة! ومصطفى هو الطفل الذي وُلد مشوهاً بفعل مضاعفات الأدوية التي تناولتها أمه أثناء الحمل نتيجة تعرضها لغاز الأعصاب، حسبما أفادت تقارير طبية. ولا أحد يمكنه أن يجزم لليوم إن كان التشوه ناتج عن الأدوية أم عن غاز الأعصاب بذاته. وبالأساس لم يجرِ مسح لمناطق النزاع السوري، أو دراسات توثق التشوه الخلقي أو التغير الجيني الممكن! ففي العراق مثلاً، قامت وزارة الصحة العراقية وبالتعاون مع أكاديميين عراقيين ومنظمات دولية، وخلال حربيها الأولى والثانية، بدراسة التغير الجيني والتشوه الخلقي الناتج عن استخدام أسلحة التحالف الدولي للأسلحة المحرمة وقتها، وأثبتت تضاعفها بنسبة 300%!

في مشهد سابق، إحدى الطالبات العُمانيات وكمشروع تخرج لها، تمكنت من تجسيد الواقع السوري بخروج الأب وابنه من إطار اللوحة. واللوحة كانت سورية، والعنوان كان اللجوء بعد طوفان عارم للقتل والموت. واليوم يصور حال السوري اللاجئ بالمشقّة!

لربما أجاد الفنانين التركي والعماني بوصف المشهد السوري حسياً وعاطفياً، وتسليط الضوء على جزء من معاناتنا العامة، كما أجاد ذلك الشرطي التركي الذي التقط صورة "إيلان الكردي" على شواطئ الهجرة قبل أعوام! ولكنا لم نجد بعد بتصوير طوفاننا على مستوى نقد العمق المتحرك فيه! فرغم ما كُتب سياسياً وبشكل هائل في المسألة السورية، لكن إلى اليوم لم يتشكل بعد وبوضوح فني أو أدبي أو فكري نقد عميق لتحولاتنا البنيوية العميقة في المشهد السوري. فإن كان جزء هام من كوارثنا هو مشقّات الحياة بالداخل، وما يتبعها من اختناقات قاتلة في سبل العيش، وفي الجوار، في دول اللجوء القريب، نكبة البيوت ومخيمات اللجوء وكوارثها الصحية والخدمية، لكنها إلى اليوم وجه من أوجه الطوفان السوري والذي لم يستقرّ بعد.

كان من المدهش المثير للحيرة والغبن لو اكتفى فيكتور هوغو بمشهد لعق النبيذ مع التراب في حي فرنسي فقير عندما وقع برميل نبيذ من عربة وأفرغ محتواه في الأرض، وكانت القصة ستكون مشقة حياة وحسب! وكيف سنعالج حال الفقراء؟ ليأكلوا أو لنطعمهم الكاتو إن لم يجدوا الخبز حسبما اقترحت ماري أنطوانيت وقتها! لكنه أرادها قصة تحولات عميقة تطال بنى المجتمع الفرنسي كافة، حياتياً ومادياً وفكرياً وثقافياً وفنياً وأدبياً، فكانت ثورة حياة بعد طوفان موت..

ميزة الأوجه المأساوية للحياة أنها تمتلئ حساً وعواطف ومشاعر، وهذه وإن كانت تحتاج لما يقابلها من عواطف نبيلة لكنها لا تكفي! كما لا يكفي تجسيدها بصور وفقط، بل الغوص العميق في نقد الموروث الديني والعرفي السائد، وتفكيك بنى السياسة السلطوية والاستحواذية المدمرة للحياة والبشر، والبحث عن إشراقات أدبية وفكرية تحاول أن تشقّ طريقها للنور في رحلة عتمة الطوفان العام! وما يدعو للحيرة، أن محاولات السوريين في ذلك لازالت، ورغم عنادها لجرف الطوفان العام، لازالت تغرق في السياسي وحسب، وقلما تنفذ للعمق باتجاه البحث الدؤوب عن المشترك العام، وعن اعتبار قضية واحدة لفئة أو طائفة أو ملة هي كل القضايا وما عداها ثانوي..

مهمة السوريين المبدعين اليوم تشكيل الفارق المهم والحيوي في تكريس نموذجية الطوفان السوري، وعدم الاكتفاء بنماذج دماره على أهميتها وعظمتها التوثيقة كعمل نبيل، وأيضاً في النحت الشاقّ في الوصول لشطّ الأمان، لا جزره وحسب. وشطّ الأمان الهام، والذي سيمثل حدّاً على طوفان الموت والحرب والعنف وتنازع الشرعيات القاتل، هو القدرة على التعاقد على سيرورة حياة مختلفة عن مجريات طوفان الموت هذا ومسبباته ونواتجه. التعاقد الحر والرضائي على سيادة القانون في وطن تسوده الحريات والإبداع والاستقرار والأمان وقدرة القانون على محاسبة الخارجين عن عقده. وليس ذلك فقط، بل والقدرة على الاعتراف بالأخطاء وعلاجها، وقد يكون أحدها إجراء مسح عام للتشوهات الخلقية والجينية الحادثة كما التشوهات الأخلاقية والوطنية، ومحاسبة مجرمي الحرب ومولدي طوفانها، حينها يمكن أن نسميها "لوحة حياة"، وما يتخللها مجرد "مشقة حياة"..

تصدّع المستقبل

عبد الله شاهين

لطالما تساءلت في خاطري عن مآلنا نحن السوريين ما بعد سقوط النظام واستقرار أوضاع البلاد، أَنَتَصَوْمَل (من نصير على خطى الصومال عقب حربها الأهلية) أم نَتَأَلْمن (نسير على خُطا ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية)؟ أنشهد مرحلة إعادة إعمار مزدهرة تنقل الدولة إلى اقتصاد ما بعد العهد الصناعي، أم نجد أنفسنا تحت رحمة المنظمات الدولية دون وجود تنمية حقيقية وأسس إعادة بناء قوية؟ لا شكّ أن التنبؤ بهذا المآل أمر عويص، كونه مرتبط بعوامل معقدة ومتشابكة، وتجاربنا اليوم ترينا أننا أمام تحدٍ بالغ الصعوبة ولا حلّ في الأفق. العامل الحاسم في كل تجارب إعادة الإعمار (عقب الحروب والكوارث) حول العالم لم يكن وجود خطة "مارشال" اقتصادية، ولم تكن القروض الدولية الميسرة أداة تفعيل أو تثبيط حقيقي للاقتصادات التي في طور التعافي، لقد كان العامل البشري على الدوام أكثر العوامل التي يمكن من خلالها التنبؤ بمستقبل الدول المتعافية. بل أكاد أجزم بأنه هو العامل الحاسم في هذه المعادلة. ذلك العامل البشري مرتبط بمعيارين أساسيين هما: استعداد هذا الشعب من الناحية التدريبية والتعليمية والتقنية، والآخر هو وجود صيغة اجتماعية تربط هذا الشعب بعضه ببعض، وتربط الأرض الجغرافية بأرضية اجتماعية مشتركة بينهم. إذا ما نظرنا إلى المعيار الأول نجدنا أمام واقع مظلم، قامت منظمة Save the Children بدراسة الواقع التعليمي للسوريين في الشمال السوري عام 2019. وجدت هذه الدراسة أن 2.45 مليون طفل سوري -أو واحداً من كل ثلاثة- لا يذهبون إلى المدرسة. بل ولاحظوا كذلك انخفاضاً في عدد طلاب المدارس التي يديرونها بمقدار الثلث؛ من أكثر من 11200 إلى حوالي 7775 طالباً. تصبح المأساة مضاعفة عندما نعلم أن هؤلاء الطلاب -الذين باتوا خارج دائرة التعليم المدرسي- لم يذهبوا إلى مهن يدوية أو حرف صناعية، بل إن الكثير منهم يعملون في تجميع النفايات والخردة أو التسول أو في المزارع، أو يجلسون في بيوتهم وخيامهم.. هذا الحال ليس طارئاً ولا قصير الأمد، نحن الآن نقارب من دخول العام الحادي عشر منذ انطلاق الثورة السورية وبداية هذه التغريبة. دراسة أخرى من عام 2017 وجدت أن هنالك أكثر من مئة ألف طالب سوري جاهز للدراسة الجامعية وليس له مقعد دراسي ولا منحة. هنالك إذاً انقطاع كامل عن التعليم لثلث أطفال سوريا، وغياب شبه كامل لسبل إكماله لمئات الآلاف منهم، حتى وإن تمكنوا من إتمام التعليم المدرسي. أما واقعنا من ناحية المعيار الثاني فلا يقل سوداوية، فأكثر من 14 مليون سوري باتوا مهجرين عن ديارهم ما بين نازح ولاجئ. كثير منهم من مر بأكثر من تجربة نزوح خلال الأعوام العشرة المنصرمة، ومازال بلا مأوى أو مستقر. كيف يمكن لأي إنسان أن يبني واقعه أو مستقبله وهو بدون مأوى ولا مستقر؟ كيف نطلب أن يصبح الطفل الذي يسكن في مخيمات مكتظة وقد خرج من التعليم المدرسي أن يكون المعجزة القادمة في العلم أو الفكر؟ حتى وإن فعل طفل منهم بالرغم من كل ظروفه العصيبة فما عسى يفعل الآخرون؟ نحن أمام معضلات كبرى تزيد تعقيد الحلول التي علينا الإتيان بها. نحن أمام فجوة زمنية وتعليمية كبرى تجعل الصدع الذي نريد ملأه كبيراً، بل المصيبة أن هذا الصدع ما زال في طوره التوسعي، ومازالت تنبثق منه تصدعات أخرى. بالرغم من دخولهما في حروب كبرى طاحنة دمرتهما، إلا أن التعليم والصناعة والطبابة والسكن ظلّ محفوظاً لجزء كبير من مواطني ألمانيا واليابان (باستثناء من تم نفيهم إلى المعتقلات والمحارق في ألمانيا)، وظلّ هؤلاء السكان في أرضهم وبيوتهم، بل وظلت العجلة الصناعية والبحوث العلمية والتقنية غزيرة الإنتاج. نحن اليوم أمام حالة انقطاع كامل عن التعلم والإنتاج والعمل والتطور، فقدنا خلال هذه السنوات العشر الكفاءات البشرية التي كانت لدينا، كما حكمنا على غالبية الجيل القادم بالفشل، ومهما منينا أنفسنا بجمال الإنجازات الفردية لبعض المغتربين السورين -والتي ترفع الرأس دون أدنى شك- إلا أننا ما زلنا أمام مشهد مروع من الفقر والتشرد وضياع المستقبل. ولا حلّ يلوح في الأفق لهذه المآسي المتراكبة والتي تزداد فداحة يوماً بعد يوم. الصومال اليوم -والتي جعلنا من اسمها مرادفاً للفشل والتخلف والحروب الطاحنة- تنهض من جديد، وتنفض عنها ركام الحرب، بل وأصبحت قبلة للكفاءات العلمية والمهنية السورية والعربية. أما ألمانيا فهي أكبر اقتصاد أوروبي، وبها أكبر جالية سورية في تلك القارة. الثابت الوحيد أنه لا شيء يبقى على حاله، ولن يزول صداعنا إلى إذا ما قمنا بما يمكننا فعله اليوم، وعلينا أن نركز على أن يكون كل ما يمكن أن نفعله اليوم ليصير سوريوا 2031 بحال أفضل وتكون توقعاتنا لمستقبلنا أكثر إشراقاً مما هي عليه اليوم. وبعد ثلاثية التشاؤم (لا شفاء لهذه النازفة، الأمل بما تبقى من العمل) في العددين السابقين) هذه سنستعرض ثلاثية الحلول التي علينا أن نعمل بها.

تعدّد الزوجات ـ لماذا فشلت الحداثة

أحمد برهو

يعيش الشعب السوري اليوم في المناطق السورية جميعها، ضائقة اقتصادية واجتماعية كبيرة تصل إلى مستوى الكارثة الإنسانيّة، فيما تزداد الضائقة أكثر على مناطق الشمال السوري، التي تتعرض منذ عشر سنين للقصف اليومي من قبل النظام السوري وحلفائه، إضافة إلى خضوع تلك المنطقة لفصائل مسلّحة كسلطات أمر واقع، وغياب القوانين المدنية الناظمة، فيستعين أهالي المنطقة بالثقافة الإسلامية كبعد قانوني/ شرعي لإدارة العلاقات الاجتماعية والمالية، ومن بينها مسائل الزواج والطلاق.

قريباً من الشمال السوري، في ولاية كلّس التركية، ثمة نظام حقوقيّ لا يسمح بتعدد الزوجات، يخضع له السوري المهاجر كضيف في الأراضي التركيّة، وقد يكون هذا السوري من منطقة اعزاز السورية، والتي لا تبعد سوى كيلومترات قليلة عن كلّس. اعزاز التي تمّ قبل مدة وجيزة الإعلان من إحدى مخيمات النازحين فيها، عن افتتاح مركز لـ (تعدد الزوجات)، وسط تفاعلات متباينة للشعب السوري، عبر وسائل التواصل الاجتماعي. تفاوتت التفاعلات بين تأييد للفكرة، وبين رفضها.

أما المؤيد فغالباً ما كان يبرّر موقفه بالاستناد إلى نصوص دينية، أو إلى وجهة نظر (واقعيّة) في التعاطي مع مسألة كثرة عدد النساء اللّواتي فقدن المعيل، في إشارة إلى شهداء الحرب، قياساً إلى عدد الرجال في بلد يعاني أهله من ويلات الحرب.

أما المعارضون لفكرة تعدد الزوجات فهم من فئة غير المتدينين غالباً، مستندين في وجهة نظرهم إلى ضرورة احترام حرية المرأة، المقموعة من قبل الرجل!

فيما طرح عدد قليل نسبياً النهج الليبرالي في التفكير؛ حيث تناول المسألة من جهة حرية الفرد، ووجوب تمكين المرأة من حريّة خيارها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ثقافة (تعدد الزوجات) بحد ذاتها ليست أمراً غريباً عن المجتمع السوري كخيار متوفر، تجيزه الثقافة الدينية والعرف الاجتماعي، لكن طرحه كمشروع دفع المجتمع السوري للحديث في ذلك على مستويين اثنتين:

1 - لغة بسيطة يشوبها الشكّ تجاه قضايا تمسّ المنظمات والدعم المالي، وحديث عن ذمّة القائمين عليها

2 - استياء من محاولة تنميط هوية الثورة السورية لصالح قالب ثقافي بعينه، من حيث تسويق حدث (افتتاح جمعية لتعدد الزوجات) باعتباره فعلاً يعبر عن هوية مقاومةٍ لثورة حرية، في حين لا يتفق أصحاب هذا التيّار مع مؤيدي تعدد الزوجات، وتجددت سيرورة الخلاف بين طرفين، أحدهما يرى أن موقفه نابع من هويته الدينيّة، ومن يعارض موقفه سيتعرض لهويته، لا بل سيعارض هوية الثورة!

وطرف ثانٍ سيخلط بين معارضته لموقف الآخر، وبين الإساءة لمعتقد، ضمن إشكال متكرر يبدو أن له أصوله الثقافية.

في سياق دراسة توتر العلاقة بين هوية المجتمعات المحلية وبين هوية الآخر، سنستعين بفيديو انتشر، قبل فترة وجيزة من الشمال السوري أيضاً، للشيخ أسامة الرفاعي، يقول فيه: "هناك نساء من أبناء جِلدتنا، يتكلمون بلغتنا، بل هم من أبناء بلدنا.. يأتون مجندات من قِبل الأمم المتحدة وغيرها.. لينشروا بين فتياتنا ما يسمونه بتحرير المرأة، ما يسمونه بالجندرة...أن تُمكّن المرأة من حريتها، يقولون للمرأة أنت مستعبدة من قبل الزوج، الأب، خذي حريتك كاملة، هكذا شأن الإنسان.."، ثم يصف فيقول: "مجندات من قبل الغرب لإفساد نسائنا.."

ربما يمكننا ملاحظة النقاط التالية:

توتر العلاقة بين الهوية المحلية وبين هوية عالمية (يسميها الغرب).

مناقشة مفهوم الحرية من خلال علاقة الرجل والمرأة.

في مثل هذا السياق يتحدث المفكر اللبناني أمين معلوف، في كتابه الهويات القاتلة، عن توتر الهويات المحلية، بعد انهيار النموذج الشيوعي بحسب رأيه، تجاه موضوعة العولمة، وأن هذا التوتر يظهر في صيغة محاولة "إبراز عنصر -واحد- من هويتهم على حساب العناصر الأخرى، وهكذا يصبح تأكيد الانتماء الديني واعتباره العنصر الأساسي للهوية موقفاً شائعاً.." ويفسر تنامي الظاهرة الدينية كمحاولة للتأليف بين الحاجة إلى هوية، ومطلب العالمية، في ظاهرة يسميها المعلوف بـ "قبائل كوكبية".

لكن وفي مستوى آخر من التوتر الهوياتي يحدثنا معلوف عن توتر دولة كفرنسا بعمقها الحضاري، من توجه أمريكي يريد فرض الهويّة الأمريكيّة كنموذج وحيد لهوية عالمية واحدة في إطار ما يسمّى بـ "العولمة".

لذلك سنتناسى آنيّا مهاجمة الشيخ الرفاعي للنماذج الأخرى "الغربية" لنركز على موقفه من الحريّة ذاتها: يقول الشيخ: "يقولون للمرأة أنت مستعبدة من قبل الزوج، الأب، خذي حريتك كاملة، هكذا شأن الإنسان..".

فهل يمكننا نفي مقالة الشيخ من حيث وقوعها أو عدم وقوعها بالفعل؟

في كتابه (الوعي الجمالي) يميز د. سعد الدين كليب بين وعيين جماليين: "كلاسيكي وحداثي"، بحسب د. كليب؛ حيث يعتمد الوعي الحداثي منظومة "التجادلية" التي ترى العالم في "وحدته القائمة على التناقض والصراع" ومن ثم الباعثة على "التميز والحرية والحيوية".

إذاً فأزمة الهوية هي أزمة مركبة على أكثر من صعيد؛ بداية من تعريف الأسرة ضمن النسق الفكري (كلاسيكي/ حداثي)، وانتهاءً بعلاقة الهويات المحلية بالعولمة، لذلك فأن نمطية التجادلية الحداثية الناظمة للعلاقات.. والأسرية منها، لا تسمح لنا أن نقول للشيخ: أنت لم تقل الحقيقة، لأنّ جملة الخطاب الثقافي الحداثي يقول ذلك بالفعل، إلا أنّ المنطق الحداثي

يراعي صياغة القوانين الناظمة للعلاقة الزوجية ضمن الأسرة الواحدة، بحيث تدعم تلك القوانين استقلالية كل من طرفي الحياة، وتدير السلطات العامة هذه المصالح المتشابكة.

فيما يشير واقع الحال إلى أنّ الشمال السوري لا يخضع، مع الأسف، لسلطة القانون، ولا سلطة مركزية تدير مصالح الأطراف فيه، فضلاً عن عدم امتلاك المنطقة لأدنى مقومات الحياة، وهذا ما يجعل، ربّما، من عمل المنظمات التي تسعى في برامجها إلى إقرار نموذج حقوقي عالمي عملاً قد لا يكون منتجاً.

وفي حين يمكننا معالجة جملة: "خذي حريتك كلها"، بالقول: إنّ من الطبيعي أن يحصل كل إنسان على حريته كاملة، وهذه ليست منحة تقدمها المنظمات، بل هو حق طبيعي، بحسب ما جاء في المبدأ الثالث لحقوق الإنسان: "لكلِّ فرد الحقُّ في الحياة والحرِّية وفي الأمان على شخصه".

لكن بالمقابل فإن منطقة كالشمال السوري، تتعرض يومياً لقصف النظام وحلفائه، وتستنجد منذ عشر سنوات بالأمم المتحدة، وبالغرب، لإيقاف إماتة الرجال والأطفال والنساء.. إن مزاجا لشعب يعيش خيبة عدم استجابة الحضارة لأولى شعاراتها: (حرية الحياة)، إضافةً إلى عدم شعوره بالأمان، هذه الأزمات وغيرها تجعل من الصعب الحديث مع هذا الشعب عن وجوب توخي دقة مفاهيم تالية كالحرية. فضلاً عن الحديث معه في مستوى أكثر عمقاً كالجندر!

لنحاول أن نكون منطقيين أكثر سنعترف بالفشل، لقد فشلت الحضارة في (الشمال السوري)، وإنّ الحديث عن (تعدد الزوجات) هو حديث من مستوى الفشل الذي يعاني مأساته الشعب السوري؛ كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً على صعيد واحد، إلا أن الاستثمار في قضاياه الوجودية لتعميم هويّة جمعيّة للشعب السوري، أو لثورته، أمر غير أخلاقي، بحال من الأحول.

أمل السوريّة.. رسالة إلى دمى العالم

يوسف صادق

أطفال سوريا يعبرون العالم دون حدود، يصلون إلى أمهاتهم المحررات من قيود المنفى والتشرّد والسجن والأيديولوجيا..

هو حلم شقيّ، هو رؤى الصدّيق بعد سبعٍ أو عشرٍ أو أكثر من السنوات العجاف، يصنعون من خيام الشتات طائراتٍ ورقية ويحلّقون، يرصفون من حطام بيوتهم ومدارسهم طريقاً إلى المجهول، يستيقظون.. أو نستيقظ نحن في حلم (أمل) الطفلة السورية الدمية!

كم نحتاج إلى الحلم كما نحتاج إلى الجنون، لنغيّر هذا العالم البليد، حسب الحلم، أنّ روحاً ما تزال ترفّ فوق أنظار بني البشر، لتذكّرهم بالجريمة.

طيف حمزة الخطيب وتامر الشرعي يرسم الـ (لا) الرافضة لإسكات أصوات الكرامة، صور عمران الخارج من ذهول عالمه لذهول عالم يراه خارجاً من أدغال الركام، وسريرٌ من الموج لإيلان ينام هانئاً من تعب الحدود وهي تضيق على حلمه.

أمّا نهلة التي نسيَتْ أن تخلع سوار قيدَيْن قبل أن تنام؛ قيد النزوح والحرمان ومفتاحه الذي تناساه العالم في جيب الطاغية! وقيد أيديولوجيا الاضطهاد والنكوص، والتي ما زالت تقيّد أصحابها خارج التاريخ والحياة، قبل أن تمنع الشمس من الرقص فوق أكفّ وضحكات أطفالنا.

أمل السورية الدمية، هي الروح، هي الحقيقة في عالمٍ يتحرك كالدمى، بلا روح، يُقيَّد البشر بسلاسل منً عبوديةٍ جديدة، عبودية المصالح، عبودية العجز، عبودية الخوف، عبودية الجهل، عبودية الأيديولوجيا بكل أشكالها الدينية والطائفية والفئوية.

هي حكاية لكل طفل وطفلة سورية، حكايةٌ تُروى لأطفال العالم قبل أن يناموا، وهم يحلمون.. في أيّ كوكبٍ حدثت هذه الأساطير، وفي أيّ زمن؟

عمر أمل تسع سنوات، وعمر حكاياتنا الكثير من السماوات والكثير من التناقضات. حملت أمل حلم كل طفل سوري وعبرت به حدود ثماني دول، شاركت أطفالها احتفالاتهم، وأوصلت أصوات 1.8 مليون إنسانٍ يطالب بتخفيض الانبعاثات المُسببة للاحتباس الحراري!.. لكنها لم تطلب في المؤتمر الدولي حول المناخ، أن يلتفت العالم للاحتباس الحراري للجريمة في سوريا.

قد يُقال كفانا الانطلاق من الاضطهاد، أو كفانا الانغلاق عليه.. فالانغلاق على الاضطهاد لا يُولّد إلّا اضطهاداً أشدّ على الذات، لكنّ أمل لم تقل إنّ السوريين هم وحدهم الشهداء، وهم وحدهم مَن يعيشون الظلم والقتل والتشرّد، بمشاركتها لكلّ قضايا العالم تثبت رسالة المحبة والإنسانية، رسالة الأديان والفلسفات، رسالة المصير المشترك لشعوب العالم. ومشاركتها دليلٌ أنّ العالم ليس عادلاً، وقضية السوريين جزء من هذا الاحتباس الحراري الذي يخشاه العالم المتحضّر، وجزء من هذا الانغلاق على الوباء، وقد أعاد العالم إلى انغلاقاتٍ جديدة.

العالم يغلق حدوده بوجه الآلاف بل الملايين ممّن يحلم بالحرية وكرامة العيش، ذاك العالم ذاته من يستثمر ويستغل قضية أولئك، أو يحاول إبعادهم عن أراضيه وشعوبه المقدسة!.. تلك هي مفارقات وتناقضات هذا العالم، تجمعها أمل برمزية عبورها، ورمزية هويتها، ورمزية مشاركتها وفاعليتها

ليس هذا التناقض الوحيد الذي تمرّ به أحلام السوريين!

قدر أمل أن تعبر بأحلامهم مثل سرب طيورٍ يهاجر بين شتاءين، بين قرارات مجلس المصالح والتأديب العالمي، وقراراته الرافضة لحقوق السوريين وأحلامهم بحياة أفضل، وبين ترحيب إنساني لا يملك الفيتو، لا يملك سوى أن يقدّم السلل الغذائية دون أن يجرؤ على النظر بأعين الأطفال.

قالت لهم أمل: "في كل ثماني ساعات يُقتل أو يُصاب طفلٌ سوريّ، وتسعون بالمائة من الأطفال بحاجة للدعم النفسي والاقتصادي".

قالت لهم: "يحتاج أكثر من مليوني طفل لمدرسته التي دُمرت أو تحوّلت لثكنة عسكرية، وقالت لهم.. إنّ الأطفال السوريين يُولدون بالآلاف خارج انتمائهم دون أن يعترف بهم أحد.

وقالت وقالت.. ولكن كلّ ما قالت حكايات يعتبرها ساسة العالم خرافةً أو كراهيةً لعالم يحكمه الكبار.

أمل الدمية قالت ما لم تقله المعارضات السورية في الداخل والخارج! حسبها توحيدها لحلم الطفولة، بينما ما يزال الساسة المعارضون يقفون على الحدود، وعلى الموائد، ويرفعون أعلاماً فوق أحلام من يُمثّلون.

لم ترفع أمل علماً أو تجمع مالاً، لم تتكلّم بلغة دين أو طائفة، ولم تفرّق بين حلم طفل وآخر. لم تُسكت أحداً رغم رشقها بالحجارة في بعض الدول.

أمل تحمل رسالة المحبة، والمحبة تتجاوز الأحقاد، تتجاوز الخلافات والعصبيات والأيديولوجيات.

فمَن هو الدمية إذاً؟ أمل بما تحمله من أملٍ وحلمٍ لكل طفل وطفلة؟ أم أولئك الساسة المقيّدون بحبالٍ مجهولة المصدر، فإن كانوا يعرفون مَن يحركهم، أو يجهلون اللعب في مسرح العرائس العالمي، فكلا الأمرين طامّةٌ كبرى.

المفارقة أنّها ليست فكرة سورية، بل فكرة المحبة العالمية، هل ما ينقصنا هو كيفية تحويل خطاباتنا السياسية إلى رسائل محبة؟ هل ما ينقصنا هو قوة الحلم، لتجاوز سياسات المصالح العالمية؟ هل ما ينقصنا هو حلم أو جنون يكسر قيود الإبداع لدى السوريّ؟

أمل هي رحلة الصعود من العالم السفلي، من الجحيم، رحلة البحث عن الأم السورية، المرأة السورية الثكلى، ولربّما الأكثر ألماً في تاريخ الأنثى العالمي.

أمل الخارجة من أحلام المعتقلات، ومن شوارع المظاهرات، ومن حناجر الساروت وسميح شقير... تسأل عن بقيّة الروح؟ عن الفكرة الباقية؟

أمل الدمية حينما تتجاوز الحدود، تدعونا لتجاوز حدودٍ وقيودٍ صنعناها بأيدينا وعقولنا، بتشرذم معارضاتنا وسياسيينا، وفي انقسام مصالح العالم الدنيء.

تدعونا لكسر قوقعاتنا بأن لا نبقى أسرى الوهم، أسرى الإعانات والمكرمات، أسرى المحاصصات والتجاذبات، أسرى السجون والشقاء في عقولنا.

فهل وصلت رسالتها؟

هل قرأت المعارضات رسالتها للبرلمان الأوروبي؟ أم ما زالوا ينتظرون على أبواب الكرملين والبيت الأبيض!

حسبها أنها تحمل حلم كل طفل سوري، خارج حدودٍ لم يكن له يدٌ فيها، حسبها أنها تجوب بخيالاتهم لتذكّر العالم بجريمته.

في شمال شرقي سوريا..

سوريات يبحثنّ عن رزقهم في مكب للنفايات بالقرب من حقل نفطي

الحسكة - كمال شيخو

غير مبالية بالروائح الكريهة والأوساخ المتناثرة والأضرار الصحية، تنبش عفراء بجسد نحيل أكوام القمامة عند أطراف بلدة المالكية أو "ديريك" بحسب تسميتها الكردية التابعة لمحافظة الحسكة، وبأصابع قد برز عظمها من أسفل الجلد بشكل لافت، تتناول بعض علب البلاستيك والمعادن من هنا وهناك، لتضعها في كيس كبير كانت تحمله رغم اتساخه، لتبيعه في آخر النهار إلى تاجر، لتأمين قوت يومها ودخل عائلتها التي تقطعت بها السبل، جراء نزوحها واستمرار الحرب الدائرة في بلدها منذ 10 سنوات.

تتردد هذه السيدة الخمسينية إلى مكبّ للنفايات يقع بريف المالكية بحثاً عن رزقها أو بعض الطعام بين أكوام وأكياس النفايات لتسد جوعها، وعفراء المنحدرة من بلدة الصور بريف دير الزور الشرقي، هربت قبل خمس سنوات من قبضة متطرفي تنظيم (داعش) بعد سيطرتهم على المنطقة آنذاك، واستقرت في المالكية. وعن عملها تقول في حديثها لمجلة طلعنا عالحرية: "هذه نعمة، إذا رفضناها سنموت جوعاً، رغم كل هذه الأوساخ والروائح أستطيع تحملها لتأمين مصروف بيتي وعائلتي". أثناء حديثها حدقت في أكياس النفايات السوداء المتناثرة بكل مكان، وبين يديها كيس فارغ لوضع قطع البلاستيك، وأضافت قائلة: "ظروفنا قاسية، وأسعار المواد والسلع الأساسية ارتفعت كثيراً، وأنا أعمل لسدّ نفقات أسرتي، لأن زوجي لا يستطيع العمل، فقد أصيب بشظية قذيفة هاون عندما هربنا من الصور".

وفي هذا المكبّ يتهافت نسوة وفتية وأطفال تجاوز عددهم 40 شخصاً فور وصول شاحنة محملة بالنفايات، للبحث عن عبوات بلاستيكية ومعادن لبيعها، أو ثياب مستعملة لارتدائها، حيث يجدون بعض بقايا طعام يتناولونه أثناء العمل، رغم أضراره، ولكن يفعلون هذا لسدّ جوعهم. وبعد وقوف الشاحنة يرمي عاملان الأكياس البلاستيكية السوداء، ليسارع الموجودون في المكبّ إلى استكشاف محتوياتها، ومن حولهم يتصاعد دخان ناتج عن حرق كميات من النفايات في هذا المكبّ الضخم.

على الجهة المقابلة يختلف المشهد؛ حيث تخترق هدير آلات تقليدية لاستخراج النفط ضجيج المكان، وعلى بعد مئات الأمتار يقع إحدى حقول النفط الغنية بالطاقة الواقعة تحت نفوذ الإدارة الذاتية وجناحها العسكرية "قوات سوريا الديمقراطية"، والتي تحولت لصراع نفوذ بين قوات التحالف الدولي والجيش الأمريكي من جهة، والقوات الروسية من جهة ثانية، وتمرّ دوريات متعددة كل منها ترفع علم بلدها على الطريق الإسفلتي الفاصل بين مكبّ النفايات وحقل النفط المجاور.

وتشير تقديرات المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين إلى وجود أكثر من 5 مليون نازح فروا من منازلهم داخل سوريا، من بينهم عفراء التي تعمل في هذا المكبّ، وكانت ترتدي فستاناً أحمر داكناً وغطاء رأس أسود اللون، مربوطاً بوشاح، وأعربت عن مشاعرها لتقول: "نعم أجني مالاً قليلاً من هذا العمل المتعب والمرهق، لكن هو أرحم من العيش لحظة واحدة تحت رحمة خيمة"، وارتسمت ابتسامة خجولة على وجهها لتضيف: "اليوم صار علبة الزيت حقها 7 آلاف ليرة (2 دولار أمريكي) ما يعادل كل المصاري التي أجنيها باليوم من هذا العمل"!

والعاملات في هذا المكب عموماً كانت تكسو ملابسهنّ طبقة سميكة من الأوساخ؛ لبحثهنّ المستمر بين أكوام القمامة والتنقيب عن النفايات، يستخدمن قضباناً معدنية مقوسة لإخراج قوارير البلاستيك. وتزيد عفراء بشيء من الشجاعة والحزم إنها تفضل العمل في هذا المكان على المكوث بمخيم تنتظر سلة غذائية أو مساعدات إنسانية: "العمل أساس الحياة ورغم كل هذا الوسخ والأمراض والتعب الكبير وقلة المردود.. نحمد الله ونشكره على كل حال".

أما منى البالغة من العمر خمس وأربعين عاماً، المنحدرة من مدينة الباب بريف حلب الشرقي، وتسكن منذ نزوحها قبل 4 سنوات في المالكية بالحسكة، اصطحبت طفلتيها هدى ذات 12 ربيعاً وأختها الأصغر مرام 10 سنوات للعمل معها في هذا المكبّ؛ فهذه العائلة تجمع في نهاية اليوم قرابة 50 كيلو غرام من البلاستيك الصالح للبيع، وما يجنونه لا يتعدى 20 ألف ليرة (ما يعادل 6 دولار أمريكي) وكانت تلبس بنطالاً طويلاً وسترة لحمايتها، وقالت الوالدة لمجلة طلعنا عالحرية: "كيلو اللحمة صار حقه 20 ألف والفروج 5 ألاف ليرة، وما نجنيه من هنا نشتري به أكلاً يكفينا ليوم واحد، أو ندفع فاتورة دواء ضروري".

وبدا على ملامح وجهها الحزن والأسى عندما تتذكر منى سنوات النزوح وما آلت إليه أوضاعها المعيشية والاقتصادية، انهمرت دموعها لصعوبة الحال قبل متابعة كلامها، وتمالكت نفسها وعبرت قائلة: "مضت سنوات ونحن هنا نازحين، فبسبب ضيق الحال وقلة المساعدات بحثت عن عمل دون جدوى، حتى بدأت العمل هنا منذ سنتين مع جاراتي".

ونظراً لتقاعس المنظمات الإنسانية عن تلبية حاجات النازحين، وتدني الأوضاع المعيشية بمراكز الإيواء ومخيمات النزوح، اضطرت منى للعمل كما المئات من النساء اللواتي يعملن وحيدات في مهن مختلفة، ويواجهن تحديات كبيرة في إعالة أسرهن. وتضيف بحسرة ممزوجة بتحدي: "نعم، أجبرتني الظروف على العمل بمكب نفايات، لكنني اكتشفت طاقتي ومدى تحمل مسؤولياتي، واليوم عملي يغطي معظم احتياجات أولادي".

ووفقاً لمفوضية شؤون اللاجئين؛ يصيب انعدام الأمن الغذائي نحو 79 إلى 85 في المائة من إجمالي اللاجئين والنازحين حول العالم، وسوريا من البلدان الأكثر شيوعاً، مما يبرز مدى ارتفاع تعرض الأسر التي تعولها النساء للخطر؛ حيث تتبع نحو 90 في المائة من العائلات السورية، استراتيجيات وأساليب تأقلم سلبية للبقاء على قيد الحياة.

واختتمت منى حديثها لتقول: "نفسيتي تغيرت عندما تحسن وضعنا المعيشي، وشخصيتي أقوى وصرت أشتري الفواكه والخضار واللحمة والدجاج والبيض، ولم يعد غذائنا يقتصر على وجبة واحدة أو أكل النواشف".

الضيف الثقيل على السوريين

نازحو الخيام في شمال غرب سوريا على موعد مع برد الشتاء.. والتحضيرات بإمكانيات معدومة

دارين الحسن- إدلب

مع حلول فصل الشتاء يتعاون إبراهيم السايح (36عاماً) النازح من مدينة كفرنبل مع زوجته وأولاده الثلاثة، في حفر قنوات لتصريف المياه حول خيمتهم، يعمل على تثبيتها وتوزيع الحجارة والحصى على جوانبها، لمنع مياه الأمطار من التسرب إلى داخل الخيمة، حتى لا تتكرر المأساة التي عانوا منها خلال فصل الشتاء الماضي.

يتحدث السايح لـ"طلعنا عالحرية": "خلال فترة الشتاء الماضي لطالما تسربت مياه الأمطار إلى الخيمة، وبللت الفرش والأغطية التي ننام عليها، لذلك أحاول ما أمكن أن أتلافى الكارثة هذا الشتاء".

معاناة أسرة السايح لا تختلف عن معاناة آلاف النازحين الذين يستعدون لاستقبال شتاء آخر في مخيمات إدلب وريفها، وسط مأساة تتكرر كل عام، في خيام بالية لا تصمد في وجه الرياح والعواصف، وبرد قارس يهدد أطفالهم بالمرض، الأمر الذي دفعهم للتجهيز لشتاء يتمنون أن يكون أقل قسوة هذه المرة.

الستينية أم باسم تنشغل بخياطة خيمتها استعداداً لفصل الشتاء الذي بات على الأبواب؛ فالخيمة هي مأواها الوحيد مع زوجها العاجز، بعد نزوحهما من ريف معرة النعمان الشرقي، "نزحنا من ريف معرة النعمان الشرقي، وجئنا إلى هذا المخيم أواخر عام 2019، ومنذ ذلك الوقت لم نستطع تبديل الخيمة المصنوعة من القماش، التي سرعان ما تهترئ بفعل عوامل الطقس، لذلك أعمل على خياطتها قبل حلول الشتاء، علها تصمد في وجه الرياح والأمطار" تقول أم باسم.

أما الطفل سامر العربو (11 عاماً) النازح من مدينة معرة النعمان إلى مخيم كللي بريف إدلب الشمالي، فيتولى مع أخيه الأصغر مهمة جمع النايلون والكرتون والملابس والأحذية المهترئة من مكبات القمامة، لتقوم والدته بتعبئتها في أكياس وتخزينها في خيمة مجاورة، لتكون وقوداً في مدفأة الشتاء، وعن ذلك توضح أم سامر: "فقدت زوجي بغارة حربية منذ عام 2018، وأصبحت مسؤولة عن خمسة أطفال، لذلك أعمل ضمن الورشات الزراعية، ويساعدني ولدايّ في تأمين مصروفنا اليومي من خلال عملهما في مكبات القمامة، حيث يجمعان النايلون والحديد والخبز اليابس لبيعها والاستفادة من ثمنها، فيما يحضران إلى الخيمة ما هو قابل للاشتعال، لحرقه في المدفأة شتاء، لنخفف عن أنفسنا مصاريف الفصل القاسي ومعاناته".

تؤكد أم سامر أن أسعار الحطب والمازوت وغيرها من مواد التدفئة تفوق قدرتها الشرائية بكثير، مضيفة: "همي الوحيد ينحصر في تأمين لقمة العيش لأطفالي في ظل الغلاء والفقر والنزوح".

حلول قد تكون مفيدة!

النازح فؤاد العربو (45 عاماً) المقيم في مخيم حربنوش بريف إدلب الشمالي، سارع لبناء غرفة من طين يأوي بها أطفاله الأربعة قبل حلول الشتاء، وعن ذلك يقول: "الخيمة القماشية، لا ترد عنا برد الشتاء، لذلك عملت على بناء غرفة طينية بتكلفة بسيطة".

يقول العربو إنه جمع الحجارة من الجبل القريب من المخيم، وقام بإعداد خلطة الطين المكونة من التراب والقش الناعم والماء، وبعد الانتهاء من البناء، قام بسقف الغرفة الطينية بعوازل قماشية وشوادر نايلون.

ويضيف: "دفعتنا الحاجة للعودة إلى الوسائل البدائية التي تتلاءم مع إمكاناتنا وأوضاعنا المعيشية المتردية، عسى أن ننعم بشتاء دافئ، بعيداً عن البرد والمرض".

أرقام مرعبة!

في استبيان أجراه "فريق منسقو الاستجابة" في إدلب بتاريخ 4 من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الحالي، شمل 78521 نازحاً من كافة الفئات العمرية، ضمن أكثر من 104 مخيمات، تبين أن المخاوف الأساسية لدى النازحين من حدوث أضرار ضمن المخيمات جراء العواصف المطرية والهوائية خلال فصل الشتاء بلغت نسبة 94%، ومن انقطاع الطرق الأساسية المؤدية للمخيمات بنسبة 82%، ومن تأخر وصول المساعدات الإنسانية إلى المخيمات نتيجة الأوضاع الجوية بنسبة 68%، بحسب الفريق.

أما أبرز احتياجات النازحين في المخيمات، فقد تركزت على المستلزمات الأساسية لفصل الشتاء تحديداً، وخاصةً فيما يتعلق بتأمين مواد التدفئة، حيث بلغت نسبة من طالبوا بتأمين وقود التدفئة بمختلف أنواعه 98%، وتأمين مدافئ جديدة أو استبدال القديمة منها نسبة 56%، واستبدال الخيم التالفة ضمن المخيمات بنسبة 48%، وتأمين عوازل مطرية جديدة للخيم بنسبة 85%، وتسوية وعزل أراضي المخيمات بنسبة 92%، ومستلزمات أخرى (ثياب شتوية، وبطانيات..)، بنسبة 84 %.

وأشار الفريق إلى أن أعداد المخيمات في مناطق شمال غربي سوريا وصلت إلى 1,489 مخيماً، يقطنها 1,512,764 نسمة من بينها 452 مخيماً عشوائياً يقطنها 233,671 نسمة.

احتياجات ضرورية وكثيرة!

من جهته محمد العبود (44 عاماً) مدير مخيم عشوائي في بلدة كفرعروق بريف إدلب الشمالي، يوضح احتياجات النازحين لفصل الشتاء: "المعاناة الأكبر لدى النازحين تتلخص في غياب مشاريع توزيع مواد التدفئة وتبديل الخيام المهترئة، لذلك يقضون شتاءهم يرحّلون مياه الأمطار ويتتبعون منافذ تسرب المياه إلى داخل الخيمة".

ويبين أن المعاناة لا تتوقف عند أوضاع الخيام، إذ تتحول الطرقات مع أول هطول للأمطار إلى مستنقعات طينية، يصعب المشي والتنقل عليها.

ويبين أن أبرز ما يحتاجه النازحون لمواجهة فصل الشتاء هو السلل الغذائية ومواد التدفئة وفرش الطرق بالحصى داخل المخيم.

ويضيف: "يعد الشتاء فصل الخير والعطاء، أما بالنسبة للنازحين فقد بات هماً يضاف إلى همومهم الكثيرة، وعبئاً يثقل كاهلهم".

أخف الضررين والخيار الصعب

علي الدالاتي - إدلب

"كان علي الاختيار بين توثيق الغارات الجوية أو مساعدة عائلتي للنجاة من تلك الغارات" ما سبق كان جواب عن سؤال وجّه لي بمناسبة الذكرى السادسة للتدخل الروسي المباشر في سوريا. عندما وجّه لي السؤال فكرت كثيراً وأنا أعود بشريط ذكرياتي، ولكن اخترت ذاك الموقف كونه في تلك اللحظة كان علي أن أتخذ قراراً من أصعب القرارات التي اتخذتها في حياتي، وسط ضغط هائل، وقصف عنيف، وصراخ الأطفال والنساء خوفاً من الغارة الأولى بعد المئة التي تسقط فوق رؤوسهم.

ففي نهاية عام 2016 كانت الحملة على وادي بردى تدخل أسبوعها الثاني، كان تركيز الحملة على قريتنا "بسيمة" حيث كان يقبع أهلي في أحد الأقبية، ولكن الأقبية لم تعد تفي بالغرض، فكان القرار بالخروج. كان القبو يفرغ كل ليلة من بعض العوائل التي تحاول النجاة، حتى أتت تلك الليلة حين عدت لأهلي لأجدهم بقوا مع عدة عائلات. حينها طلبوا مني إنقاذهم والخروج بهم لمكان أكثر أماناً أو أقل خطراً؛ ففي تلك اللحظات كان النظام يقصف كل قرى المنطقة ولكن بوتيرة مختلفة.

وقتها كان علي الاختيار بين واجبي الإنساني بإنقاذ عشرات الأطفال والنساء -ضمنهم عائلتي- وإخراجهم من القرية، أو إبقائهم في القبو، والذهاب لواجبي كناشط إعلامي بنقل الحدث وتوثيقه. كان علينا اتخاذ القرار وسط سيمفونية من أصوات هدير الطائرات وانفجار القنابل.

قطع تفكيري باتخاذ القرار صوت برميل متفجر وقع على البناء المجاور للقبو القابعة فيه عائلتي، يومها كانت القصة باختصار هي اختيار أقل الضررين؛ إما إنقاذ عائلتي وعدم التوثيق، أو الاستمرار بالتوثيق وربما تكون عائلتي هم ضحايا المجزرة المقبلة التي عليّ توثيقها!

الأبناء وأصعب الخيارات

لم تكن حال العمّ أبو معتصم مع الخيارات أفضل مني؛ فعندما رأيته للمرة الأولى وهو يلاعب أحد الأطفال بجانب خيمته في مخيم أطمة على الحدود السورية التركية، قرأت في وجهه السبعيني من القهر ما يكفي للبكاء الدهر كله، ولكن ابتسامته لنا ودعوتنا لشرب الشاي بجواره شجعتاني لسؤاله عن سبب حزنه وقهره، ليروي قصته التي بدأت عام 2012، حينما اعتقلت قوات الأمن ابنه الأصغر "مهند" من السكن الجامعي في مدينة حلب، حيث كان يقيم، وبعد أن وصله الخبر قام بالتواصل مع عدد من معارفه للإفراج عن ابنه الذي لم يكن له أي نشاط سياسي، بعكس أخيه الذي انضم للجيش السوري الحر، ليأتيه بعدها الجواب الصادم أن مهنداً معتقل بدل أخيه معتصم؛ حيث اشترطت قوات الأمن عليه أن يقوم ابنه الأكبر معتصم بتسليم نفسه لهم مقابل الإفراج عن مهند، وإلا لن يخرج مهند من السجن!

ليعقد هناك أمره أنه لن يسلم ابنه بيده للموت، وأن ابنه الثاني "له الله"، ولكن حكاية أبو المعتصم لم تتوقف هناك؛ ففي عام 2015 قتل ابنه في معارك بريف حلب بين الجيش السوري الحر وقوات النظام، ليبقى لديه أمل في خروج ابنه مهند بعد مقتل أخيه، ولكن هذا الأمل زال بعد أن رأى صورة جثة ابنه مهند ضمن صور قيصر.

قلب الأم المقسم عبر الحدود

"كنت أتمنى أن يكبر أبنائي ليرتاح قلبي من القلق عليهم، ولكن عندما كبروا قسموا قلبي عبر الحدود" كانت أم محمد تهمس بتلك الكلمات وهي تحاول إخفاء دموعها عن كاميرا الجوال التي تكلم بها ابنتها التي بقيت في ريف دمشق، بينما خرجت الأم بقوافل التهجير القسري من ريف دمشق إلى إدلب.

باكية، حزينة، مقهورة خرجت أم محمد من منزلها بالغوطة الشرقية نحو إدلب، بعد أن تركت أربعين عاماً من الذكريات في ذاك المنزل، وابنتها الوحيدة التي بقيت هناك مع زوجها وأطفالها.

كان خيار أم محمد صعباً؛ فإما مرافقة ابنيها في رحلتهم لإدلب ضمن قوافل التهجير القسري، أو البقاء بعيدة عنهم في مسقط رأسها وبجوار ابنتها. بحسب أم محمد لم يكن القرار سهلاً أبداً عليها؛ فقد تتمنى الموت بدل الوقوع في ذاك الاختيار، ولكنها قررت أخيراً مرافقة ولديها، لتلقي نظرة الوداع التي ربما تكون الأخيرة على منزلها وابنتها، وتركب في رحلتها لإدلب، التي ستضطر فيها مجدداً للاختيار بين ابنيها اللذين استقر أحدهما في إدلب، وقرر الآخر أن يخرج إلى تركيا، وعليها أن تختار الآن بين إدلب وتركيا؛ والأصح بين فلذات كبدها الذي قسمته عبر الحدود.

يبدو أن الخيار بين السيء والأسوأ قد أصبح خيار السوريين الدائم؛ حتى بات على أم محمد وأبو المعتصم وعلى ملايين السوريين اختيار "أخف الضررين" يومياً، وبكافة أمور حياتهم، فغالبية قراراتهم تندرج بين السيء والأسوأ؛ فالظروف التي يعيشها الشعب السوري بسبب سكوت العالم عن مقتلة امتدت لعقد كامل على يد النظام وحلفائه، أوقعت السوريين في لعبة الخيارات التي عليهم اختيار أقلها ضرراً.

ورغم كل ذلك فإن أبو المعتصم يرى أن هناك قضايا متجذرة لا تخضع للاختيار، كالتخلي عن الثورة أو التوقف عن المضي في دروب التحرر والحرية، أو القبول بتعويم نظام الأسد، أو السماح بإفلات قتلة الشعب السوري من المحاسبة؛ فتلك القضايا لديه هي "من المسلمات التي لا خيار فيها إلا ذاتها عبر المضي فيها حتى النهاية".

فجوة الأجور
تضاعف معاناة المرأة في إدلب

هاديا منصور

تواجه النساء في إدلب وشمال غرب سوريا غبناً وعدم مساواة في الأجور مع الرجال، وفق منظومة تمييزية واسعة ضد حقوقهن الاقتصادية، على الرغم من تساوي قيمة العمل ذاتها والمجالات ذاتها، ما يبخس المرأة حقوقها ويسهم في التقليل من أهمية عملها ونجاحاتها.

"لا أعلم ما الذي يجعل أجور العمال الذكور تزداد عن أجورنا في كل مرة" تتساءل فرح البشير (34 عاماً) والتي تعمل في موسم قطاف الزيتون الموسمي هذا العام، مع عشرات العمال والعاملات الآخرين.

وتضيف أنهن يخرجن للعمل في ساعات الصباح الأولى، ويتقاسمن العمل في الحقل ويجهدن لإتقان المهام الموكلة إليهن كعاملات، ليعدن أدراجهن مساء بعد يوم شاق من العمل، ليواجهن في نهاية المطاف تمييزاً في الأجور من قبل أرباب العمل، لتحصل النساء على مبلغ 50 ليرة تركية والرجال على 70 ليرة تركية.

تنتقد فرح ما تواجهه المرأة من ظلم وتمييز متعمد، موضحة: "هذا التمييز ليس وليد المرحلة، وإنما من عشرات السنين، ولم أجد تفسيراً لذلك رغم بحثي مطولاً عن الأسباب، لأجد أن اعتبار المرأة دائماً في المرتبة الدونية في مجتمع ذكوري هو العامل الأبرز في هذه القضية".

وكانت أن أثبتت المرأة السورية قوة وكفاح ونضالاً وتأقلماً مع ظروفها الصعبة التي واجهتها وما تزال تواجهها خلال السنوات الماضية، وما لاقته من نزوح وفقر وقصف ورعب وفقدان، ومع كل ذلك استطاعت أن تثبت ذاتها وتنخرط في أعمال ومجالات عمل جديدة، بغية إعالة أسرتها أو مساعدة زوجها في تحمل الأعباء الكبيرة.

لكن عملها دائماً يصطدم بتحديات مجتمعية تحول دون تكافؤ الفرص والتحرر من التمييز والعنف والتحرش والمساواة في الأجر عن عمل ذي قيمة متساوية.

مساواة في قطاعات معينة.. ولكن!

بعض المحظوظات من النساء الموظفات في منظمات المجتمع المدني، كما يصفهن البعض، يجدن رواتب جيدة ومتساوية مع الموظفين الذكور في كثير من الأحيان، وهنّ يشكلن نسبة قليلة من النساء، في حين تجد الغالبية العظمى ظلماً في توزيع الأجور حين يتعلق الأمر بالعمل في القطاعات الخاصة بالأفراد.

تعمل حسناء الطبال (28 عاماً) في مركز كبير لبيع الألبسة الجاهزة في مدينة إدلب مع عدد من الموظفات والموظفين، مقابل أجر يقدر ب 50 دولار أمريكي شهرياً.

تقول حسناء: "كأن قلة الأجر وعدم تناسبه مطلقاً مع الغلاء الحاصل والجهد الذي نبذله نحن النساء هنا لم يكن كافياً لنعاني أيضاً الظلم الواضح بتوزيع الأجور من خلال منح الرجال رواتب أعلى".

تخرج حسناء منذ الصباح إلى عملها في مركز بيع الألبسة لتعود مساء، وتبدأ بأعمال المنزل والعناية بأبنائها الثلاثة الذين تركتهم طيلة اليوم عند جارتها، لعدم وجود دور حضانة أو مكان آخر آمن يمكن أن تضع به المرأة العاملة أولادها، فإما أن تضعهم عند جيرانها أو أمها أو إحدى قريباتها.

لا يوجد تقدير للجهود

ورغم كل ما تواجهه المرأة من صعوبات في عملها، إلا أنها لا تجد من يقدر هذا العمل أو يمنحها حقوقها بالشكل الذي لا تشعر معه بالغبن والظلم المجحف بحقها.

صبرية السكري (33 عاماً) والتي تعمل في ورشة لكبس التين المجفف مع أخريات، هي وزميلاتها لا يحصلن على أجور جيدة، عكس الرجال الذين يتقاضون دائماً أجوراً أعلى "على عينك يا تاجر" تقول صبرية.

وتضيف: "النساء جداً مستاءات لما يحصل ولكن لا يستطعن المطالبة بأجور أعلى أو الرفض، كونهن مجبرات على العمل بالأجر الذي يحدده صاحب العمل، وإلا فجوابه الروتيني المعروف قد حفظه الجميع "من لا يعجبه العمل أو الأجر ليس مجبراً على البقاء"".

الظروف القاسية التي تواجه النساء وخاصة المعيلات منهن، تجعلهن يرضين بأي أجر وإن كان قليلاً وغير مناسب، لأنه يبقى "أفضل من لا شئ في ظل الفقر وانعدام الفرص" وفق ما عبرت عنه صبرية.

الباحثة الاجتماعية جمانة الكليب (35 عاماً) تقول: "على الرغم من تأييد المساواة بين الرجال والنساء الذي تدعمه منظمات المجتمع المدني من خلال مشاريعها التي تهدف إلى التوعية والتمكين، إلا أن تطبيقها في الممارسة العملية كان صعباً للغاية".

وترجع الباحثة الكليب الأسباب إلى "علاقة القوة التاريخية والهيكلية غير المتكافئة بين الرجال والنساء، الفقر والحرمان من الوصول إلى الموارد والفرص التي ما زالت تحد من قدرات النساء والفتيات".

وتنوه إلى أن أجر المرأة يقل عن الرجل لا لشيء إلا لاختلاف الجنس، والتقديرات الحديثة تشير إلى أن المرأة تحصل على 77 سنتا مقابل كل دولار (100 سنت) يحصل عليه الرجل.

وترى جمانة أن الأمر يتطلب جهوداً مكثفة من المجتمع العالمي بأسره لتعزيز المساواة في الأجر مقابل العمل ذي القيمة المتساوية وزيادة فرص التمكين الاقتصادي للنساء، موضحة أن أولى الخطوات للتصدي لفجوة الأجور بين الجنسين هي القانون وتفعيل دوره.

وكشف تقرير حديث صادر عن منظمة العمل الدولية أن تقليص الفجوة بين الجنسين في العمل لم يشهد أي تحسن يذكر منذ أكثر من 20 عاماً، لكن على الرغم من ذلك أكّد التقرير على أن الطريق واضح نحو إحراز تقدم ملموس يستدعي تحقيق قفزة نوعية وليس مجرد خطوات تدريجية مترددة.

وقالت مانويلا تومي مديرة قسم ظروف العمل والمساواة في منظمة العمل الدولية: "نحن بحاجة لتحقيق قفزة نوعية نحو تحقيق المساواة بين الجنسين من أجل مستقبل عمل أفضل للجميع يحدد الخطوات القادمة".

نحمي بعضنا
حملة لنبذ العنف الأسري في الرقة

الرقة – عبد الله الخلف

بعد أن حضر أبو سليمان (36 سنة) إحدى الجلسات الحوارية التي أقامتها منظمة بيت المواطنة، في حي مفرق الجزرة بمدينة الرقة حول التفكك الأسري، قرر الذهاب لمنزل أهل زوجته ومصالحتها بعد شهر من الخلاف بينهما.

يقول أبو سليمان إن الأفكار والقيم التي سمعها وتحاور بشأنها مع نشطاء المنظمة خلال الجلسة، جعلته يفكر ملياً في علاقته مع شريكة حياته، "الجلسة أتت في وقت كنت أنا شخصياً محتاج إليها، كنت أريد من يقول لي هذا الكلام ويشجعني على إعادة المياه لمجاريها مع زوجتي".

ويبين أن البيئة المحيطة به كانت تشعره على الدوام بأنه سيكون شخصاً ضعيفاً ومهزوماً إذا ذهب لمصالحة زوجته، ولكن عقب المناقشات في الجلسة، شعر بأنه استيقظ من غيبوبته على وصفه، "فكّرت كيف أن المفاهيم التي كانت معبأة في رأسي محض هراء، والمهم هو أن تكون علاقتي بزوجتي يسودها الحب والتفاهم والاحترام من أجل مستقبل أفضل لنا ولأطفالنا".

الجلسات الحوارية التي حضرها أبو سليمان هي إحدى أنشطة حملة "نحمي بعضنا"، والتي أطلقها مركز المرأة في منظمة بيت المواطنة بأواخر شهر آب الماضي، واستمرت حتى نهاية تشرين الأول الفائت.

تهدف الحملة بحسب القائمين عليها لـ "تعزيز قيم الأبوّة والاحترام واللاعنف في الأسرة، ونبذ التفكك الأسري والعنف الذي تفاقم خلال الأعوام الماضية، نتيجة الظروف العصيبة التي عايشها السكان بعد سنوات من الحرب الطاحنة" حسب تعبير يسرى الأحمد منسقة مركز المرأة في بيت المواطنة.

تشير يسرى إلى أن الحملة موجهة للعائلات، ولكن بشكل أساسي للرجال، لمحاولة توعيتهم بخصوص قيم الأبوّة والاحترام واللاعنف التي تراجعت في المجتمع وفق رؤيتها، "أطلقنا هذه الحملة بعد أن شاهدنا التدهور الكبير في العلاقات الأسرية في المجتمع، نتيجة الفقر والنزوح الذي بات يعيشه الكثيرون، أو انتشار المخدرات التي أدت بدورها لتفاقم المشاكل العائلية، ووصولها لحد الجرائم التي نسمع عنها بين الحين والآخر".

الحملة استهدفت اثنين من أكبر أحياء مدينة الرقة في الكثافة السكانية، وهما حي رميلة ومفرق الجزرة، وتضمنت عدة أنشطة؛ أولها جلسة تعريفية بالحملة لوسائل الإعلام والسكان المحليين، وبعدها انطلقت باقي الأنشطة التي تتحدث عنها يسرى الأحمد لـ طلعناعالحرية.

"الجلسات الحوارية كانت أساس الحملة، عقدنا عدة جلسات على مدار شهرين، استهدفنا 150 شخصاً معظمهم رجال في الحيين المذكورين، كانت النقاشات حامية في بعض الأحيان، في البداية معظم الأهالي لم يتقبلوا الفكرة، ربما اعتقدوا أن المنظمة إغاثية والأفضل هو تقديم مساعدات لهم كونهم يعيشون في مناطق فقيرة، ولكن بعد أن شرحنا لهم عن أهداف الحملة والقيم التي نحاول إحيائها، الغالبية تقبلوا الأمر، وكان الحوار بنّاءً وممتعاً، وحتى إن بعض الذين أساؤوا لنا في البداية شاركوا معنا في نهاية الحملة كمتطوعين".

وتضيف يسرى بأنه بجانب الجلسات الحوارية تم توزيع منشورات ورقية على الأهالي في الشوارع تتضمن قيم الحملة، بلغ عددها أربعة آلاف منشور، بالإضافة إلى أكواب ودفاتر عليها عبارات ورسائل مناهضة للعنف.

وتتابع "قمنا برسم جدارية تحث على الاحترام والأبوّة في حي مفرق الجزرة، أيضاً زرنا منظمات مجتمع مدني لتشارك في الحملة، ومؤسسات تتبع للإدارة الذاتية، وحالياً انتهت الحملة، ونتمنى أن نكون قد تركنا أثراً، وبالطبع ستكون هناك مبادرات مشابهة خلال الفترة المقبلة".

ويلفت عيسى الهنداوي قائد فريق الحشد والمناصرة في منظمة بيت المواطنة إلى أن أفكار الحملة تم نشرها من خلال خطب الجمعة، وذلك بعد زيارة مؤسسة الشؤون الدينية في الرقة والتنسيق معها بخصوص ذلك.

"زرنا مفتي الرقة وتم الاتفاق على تعميم خطبة الجمعة حول موضوع الحملة ونشر رسائلها عبر خطباء المساجد، وصلوات الجمعة مكان تجمع لمعظم الرجال الذين هم الفئة الأولى المستهدفة في حملتنا، وبذلك وصلت الرسالة التي نحملها لنسبة كبيرة من الأهالي".

وشاركت في الحملة 6 منظمات مجتمع مدني محلية في الرقة إلى جانب منظمة بيت المواطنة، بالإضافة لمؤسسات تابعة للإدارة الذاتية، و25 متطوعاً ومتطوعة.

من جهتها تروي مرح الخلف "26 سنة" وهي إحدى الفتيات اللواتي حضرن الجلسات الحوارية، كيف أثرت الحملة عليها هي شخصياً، "الحملة كانت إيجابية وتركت صدى جيداً في الحي الذي أسكن فيه، أنا أصبحت أحاول الابتعاد عن العصبية والصراخ في المنزل والتعاطي مع الأمور والمشاكل بهدوء من أجل حلها بالتفاهم مع أفراد العائلة، وأتمنى أن تكون هناك المزيد من هذه الجلسات في الفترة القادمة".

وبحسب دراسة اجتماعية نشرها مركز "حرمون" للدراسات، فإن الحرب في سوريا أدت لظهور وتفاقم العديد من المشكلات الاجتماعية، أبرزها تفكك بنية الأسرة وتصدع القيم الاجتماعية، واستفحال حالات القتل والطلاق في العائلات السورية.

وتنشط في مدينة الرقة العشرات من منظمات المجتمع المدني المحلية، التي ولدت بعد طرد تنظيم داعش عام 2017، وتقدم تلك المنظمات خدمات إغاثية وتنموية، بالإضافة لمشاريع ومبادرات مجتمعية توعوية.

إيجارات المنازل في ريف حلب تفوق المعقول.. والدولار يحكم

حسين الخطيب

لم يتوقع محمد المنصور تركَ المنزل الذي تعب في بنائه خلال سنوات متواصلة من عمره، حيث كان يضع حجراً فوق آخر بكد يديه، فالمنزل الذي قضى عدة سنوات على بنائه بات فارغاً معرضاً للسرقة والنهب من قبل قوات نظام الأسد، لكن القدر دفعه إلى تركه وحيداً باحثاً عن منازل للإيجار في مدن وبلدات ريف حلب الشمالي.

يقيم المنصور في مدينة اعزاز في ريف حلب الشمالي، حيث انتقل مؤخراً إلى هذا المنزل الذي بات يشكل مكاناً آمناً له وأسرته، بعدما نزح خلال الربع الأول من عام 2020 من مدينة معرة النعمان بريف إدلب الجنوبي، نحو المخيمات العشوائية، عقب سيطرة نظام الأسد وميليشياته على عدة مدن في ريف إدلب الجنوبي.

قال المنصور خلال حديثه لمجلة "طلعنا على الحرية": "نزحنا إلى المخيمات مرغمين، حيث تجتمع عشرات الأسر من أقاربي، لكن الأوضاع لم تعد تحتمل، لأن النزوح طال ولا عودة قريبة إلى ديارنا مجدداً، كنت أعتقد بداية تهجيري أنها مجرد أيام والعودة إلى الديار قريبة، لكن على ما يبدو لا عودة إلى المكان الذي أحب، وبتُّ في وضع صعب".

وأضاف، خلال وصفه لمنزله: "ذلك المكان الآمن المفعم بالحيوية حيث الأولاد والجيران والأقارب، الذي يشكلون ترابطاً اجتماعياً متميزاً، أصبح من الماضي، أما الآن نحن منتشرون في مساحة جغرافية مع بيئة اجتماعية متنوعة من الناس".

يبدو أن السوريين لم يتوقعوا تركَ منازلهم التي قضوا سنوات أمامها لبنائها أن تترك فارغة، ويلجؤون إلى استئجار المنازل، بصرف النظر عن طبيعة خدماتها. لكن مما زاد معاناتهم ارتفاع أسعار الإيجار إلى مستويات ضخمة، في حين هم يملكون عقارات متنوعة من محال تجارية ومنازل وأراض زراعية لا يستطيعون العودة إليها.

مع استمرار فترة النزوح التي طال أمدها، وفقدان النازحين والمهجرين أملهم في العودة إلى ديارهم ومناطقهم التي هجروا منها، باتوا اليوم يبحثون عن منازل للإيجار، وذلك للالتفاف على الأوضاع السيئة التي تعيشها المخيمات خلال فصل الشتاء. ما ساهم في ارتفاع أسعار الإيجارات بشكل غير مسبوق، لدرجة أصبح الحصولُ على منزلٍ بخدماتٍ متوسطة، وسعرٍ متوازنٍ، كالباحث عن إبرة في كومة قش، لأن معظم الأسعار تكون مرهونة بالدولار الذي بات يحكم بين الأهالي، بعد انهيار الليرة السورية، وانخفاض قيمة الليرة التركية، التي بدأ تداولها مؤخراً عوضاً عن الأولى.

يقول "حاتم الحسن" وهو رجل نازح يقيم في بلدة صوران شمال حلب، خلال حديث لمجلة "طلعنا على الحرية": "أخيراً وجدت منزل متوسط الخدمات لكن سعره مرتفع يصل إلى 75 دولار أمريكي شهرياً، وعلى الرغم من ذلك استأجرته لأنني مضطر، ولا يمكنني البقاء في المخيم، لاسيما أننا بتنا أمام شتاء طويل يعاني منه قاطنو الخيام".

وأضاف: "بحثت في مختلف الأماكن ومكاتب العقارات عن منزل بسعر مقبول لكن الأسعار عادةً ما تكون غير مناسبة للدخل المعيشي؛ إذ يتراوح إيجار المنزل بين 75 والـ 150 دولار أمريكي، بعضهم يطلب الإيجار لمدة ستة أشهر، وبعضهم لمدة سنة كامل، وهذا ما يعيق إقامتنا في منازل لفترة طويلة".

وأشار الحسن إلى أنه يتقاضى مبلغاً شهرياً من خلال عمله في مستودع للمواد الغذائية يصل إلى 100 دولار أمريكي، لكن الحاجة إلى المنزل دفعته للاستدانة من صديق له للحصول على منزل يقي أبناءه من برد الشتاء".

ومع تدفق النازحين والمهجرين من مختلف المحافظات السورية إلى ريف حلب الشمالي، ازداد الطلب على المساكن، وبدأ بعض المقيمين يقتطع من المستودعات المخصصة لوضع الحبوب غرفةً وحمام، وبعد ترميمها بشكل بدائي، يعلن في ذلك عن منزل مخصص للإيجار، في حين لا يختلف هذا المنزل الذي لا يرى الشمس عن القبر، وعلى الرغم من ذلك، دفعت الحاجة الكثيرين للإقامة بتلك المنازل.

يقول "محمود شهابي" وهو صاحب مكتب عقاري: "يبلغ إيجار المستودع 35 دولار أمريكي شهرياً، ما يعادل 350 ليرة تركية، أما المنازل العربية القديمة التي تركها أصحابها ولجؤوا إلى تركيا فإن أسعارها تفوق الـ 100 دولار أمريكي، بينما الشقق السكنية التي يتم إيجارها لمدة لا تقل عن ستة أشهر فتصل تكلفة إيجار الشهر إلى 150 دولار أمريكي".

وأضاف: "تتنوع الإيجارات بحسب جودة المنزل وموقعه والخدمات المتوفرة فيه، ومهجملها فإنها لا تشكل أي أهمية لدى النازحين الذين يبحثون عن مأوى لهم قد يعينهم على تحمل قسوة الحياة".

دفع ارتفاع الإيجارات الأسر إلى استئجار المنزل من قبل أسرتين بطريقة تشاركية، سواءً كانوا شقيقين أو صديقين، لكن مع ازدياد تلك الحالات تحول الأمر إلى طريقة استغلال مشبوهة، يقوم فيها أصحاب العقار برفع سعر المنزل بحسب عدد الأشخاص المقيمين فيه، مما دفع العديد من النازحين إلى ترك المنازل واللجوء إلى القرى المحيطة بالمدن للحصول على منازل تمتاز بأجور منخفضة.

ويعاني سكان ريف حلب الشمالي، سواءً المقيمين أو النازحين والمهجرين إلى المنطقة، من ضيق معيشي صعب للغاية، الأمر الذي دفع هؤلاء لاستثمار المساحات المتوفرة في منازلهم وتحويلها إلى منزل يعرضه للإيجار، في محاولةٍ منه للحصول على دخل آخر يعينه على تحمل مصاريف المعيشة.

يأتي هذا كله، في ظل انخفاض الأجور اليومية التي تتراوح بين 20 و30 ليرة تركية، وانتشار البطالة بين الشباب، وندرة فرص العمل، مع ارتفاع كبير بأعداد السكان في منطقة جغرافية محدودة تفتقر لأدنى مقومات الحياة، مع استمرار انهيار الليرة التركية أمام الدولار الأمريكي، مما انعكس سلباً على حياة الناس.

موسم قطاف الزيتون في إدلب بدأ مبكراً

في ظل تراجع المحصول وغياب طقوسه

شمس الدين مطعون

افتقد موسم قطاف الزيتون بمحافظة إدلب لهذا العام طقوسه الخاصة؛ حيث غابت الجلسات الطويلة بين الأشجار ودندنة الأغاني الشعبية؛ فقد انطلق الموسم قبل أن تكمل ثمار الزيتون نضوجها. وكان من المتعارف عليه أن ينتظر المزارعين إلى أن يسقى المحصول بماء المطر مرتين على الأقل؛ فكلما تأخر بدء القطاف ضمِن المزارع إنتاجاً أفضل.

إلا أن عشرات الأهالي اضطروا للبدء بجني الثمار باكراً دون أن تستكمل حبات الزيتون نضوجها بشكل جيد، لا سيما مناطق ريف إدلب الجنوبي التي تقع على بالقرب من خطوط التماس مع قوات النظام وتتعرض لقصف متكرر.

يقول حمزة وهو من أهالي جبل الزاوية قبل أن ينزح مؤخراً إلى مخيمات الشمال المحرر لـ"طلعنا عالحرية": "إن العمل في جني محصول الزيتون لهذا العام كان سريع جداً، اضطررنا لبدء القطاف مع نضوج أولى الثمار".

ويضيف حمزة: "تقع حقولنا على خطوط التماس مع قوات النظام، لذلك قررنا أن نجنيها باكراً، خوفاً من عودة القصف والمعارك التي ستحرمنا من المحصول بأكمله".

كما اضطر عشرات المزارعين لمواجهة الموت أثناء جني حبات الزيتون، حيث عملوا تحت هدير طيران الاستطلاع وأصوات القذائف المدفعية التي تستهدف تجمعاتهم بمناطق عدة بريف إدلب.

في حين يخشى بعض المزارعين من أن تنهب ثمار أشجارهم من قبل المقاتلين الذين يضيقون في بعض الأحيان على الأهالي في الوصول إلى أراضيهم القريبة من الجبهات.

ويقول أبو هيثم من أهالي ريف إدلب الجنوبي إنه يعاني الأمرين للوصول إلى أرضه القريبة من خطوط التماس مع قوات النظام: "كل مرة حجة شكل.. مرة أمنيات، ومرة لح تصير معركة وممنوع تفوت" أوضح أبو هيثم وهو يصف ردود عناصر الحواجز التابعة لفصائل المعارضة المنتشرة على طريق الوصول إلى أرضه. وأضاف أنه اغتنم أول فرصة للوصول إلى شجرات الزيتون التي يملكها وقام بقطاف كامل المحصول، "كان يجب أن أنتظر حتى ينضج تماماً، ولكن بعض المحصول خيرٌ من عدمه" قال أبو هيثم.

"تحت الزيتونة قعدة وركوني" يقول الحاج أبو صادق ويردف: "أما الآن: اجنِ محصولك بسرعة وامضِ".

يوضح أبو صادق أن قطاف الزيتون بوقت مبكر أدى لتراجع كميات المحصول بشكل كبير، إضافةً لانخفاض كميات الزيت الناتج عن حبات الزيتون التي لم تتم العناية بها جيداً خلال الفترة الماضية بسبب صعوبات الوصول إلى المحاصيل الواقعة تحت خط النار.

ويقول أبو صادق: "إن حبات الزيتون صغيرة جداً، كما أنها لم تدر كميات الزيت المعتادة، فكل 100 كيلو زيتون لم تنتج سوى حوالي 16 إلى 25 كيلو زيت فقط". بينما تكون النسبة بالعادة 25 % أو أكثر.

في المقابل، فقد ارتفعت أسعار زيت الزيتون في ظل ضعف الإنتاج، حيث لم يتجاوز سعر تنكة زيت الزيتون (سعة 16 ليتراً) في العام الماضي 32 دولاراً، و22 دولاراً في العام الذي سبقه، أما في بداية هذا الموسم فقد وصل سعر التنكة إلى 43 دولاراً، وهو قابل للارتفاع.

كما أسهمت عوامل عدة في تراجع محصول الزيتون وتدني كمية الإنتاج في محافظة إدلب، حيث "يقدر انخفاض موسم الزيتون مقارنة مع المواسم الماضية بنسبة 30%" وفق المهندس الزراعي يحيى التناري.

ويوضح التناري لـ"طلعنا عالحرية" بأن سبب التراجع يعود "لانخفاض معدل الأمطار، مقابل ارتفاع درجة الحرارة أثناء نمو أزهار الزيتون، ما أدى لانخفاض نسبة عقد الثمار على الأشجار".

ووفق المهندس التناري فإن نسبة الأرباح التي من المتوقع أن يجنيها المزارع لهذا العام قليلة بسبب انخفاض الإنتاج، و"تقدر بحوالي 50% إلى 60% من إجمالي الإنتاج"، كما تصل "نسبة التكلفة 40% إلى 50% من إجمالي الإنتاج".

كما تأثر عمال جني الزيتون بتراجع محصوله؛ يقول أبو وائل وهو أحد العاملين بقطاف الزيتون: "كنت معتاداً على العمل بجني الزيتون على الأقل لمدة شهرين وأحياناً أكثر، مما يؤمن لي دخلاً جيداً يمكنني توفيره لشراء مونة البيت من الزيتون على الأقل". إلا أن قلة الإنتاج خفضت مدة العمل المتوقعة، حيث كان موسم قطاف زيتون يؤمّن فرص عمل جيدة لعشرات عمال المياومة الذين يعملون بجني ثمار الزيتون، وتتراوح أجور (يوميّة) العامل لهذا العام بين 20 لـ 30 ليرة تركية، أي أقل من 4 دولارات.

و يوضح أبو وائل أن عدد الأيام التي سيعملها بهذا الموسم لن تتجاوز 30 يوماً، وذلك بسبب قلة حمولة الأشجار، "هالموسم ماحدا مرتاح لا العامل ولا الفلاح" قال أبو وائل.

تعتبر محافظة إدلب، لاسيما مناطق جسر الشغور وسلقين وحارم وجبل الزاوية الأولى في سوريا من حيث المساحات المزروعة بأشجار الزيتون، ويعد موسم الزيتون أحد أهم مصادر الدخل بالنسبة لأهالي المحافظة.

ووفق إحصائيات محلية فإن عدد أشجار الزيتون بمحافظة إدلب انخفض من 14 مليون شجرة مثمرة في عموم المحافظة إلى 8.5 مليون شجرة فقط، بعد تقدم قوات النظام ومليشياته إلى المحافظة، وسيطرتها على مناطق واسعة.

في الحِلِّ والتَّرْحال..

عهد زرزور

من يدري كيف بدأ الأمر؟! ينتابنا القلق، وتأسرنا فكرة الرحيل والتخلي حيثما تعوّدنا الوجوه الأليفة، التعوّد المحبب صار منفّراً، وانتهينا كائناتٍ وحيدة تبحث عن وجوه صفراء غريبة لا تشبهها، أو أنها تشبه جذورها المفتتة.

في البلاد البعيدة، لا يبحث السوري عن السوريين بل يبحث عن نقصانهم! عن شوارع لا يلقى بها وجهاً يعرفه، كأنه يبتعد بُعدَين؛ بعداً عن المكان وبعداً عن أهل المكان، فيتم بهذا رحيله المكتمل.

في يوم شتوي عزمت الرحيل واجتاحني الهرب مما تعودت، على عكس طبعي الأليم في أن أنغرس؛ فطالما تمنيت أن أكون شجرة في حياة موازية، لكن زلزال البلاد هزني مع ترابها وجعل مني كائناً رحّالاً، لا تستقر لي أرض ولا حال. لم أتخيل يوماً أن أعدّ المدن التي زرتها، وأسجّل مشاعر الحب واللطف والقسوة على دفاتر كثيرة في ملحوظات عابرة، ولم يخطر على البال أن ألقى أصحاباً في بلاد السائحين والأسفار.

كان الرحيل مفتاح نجاة واصطبار. في اللجوء إلى البعد انقسمتُ إلى ذكريات أماكن؛ في مدينة أترك فنجان قهوة لم يكتمل، وفي أخرى أثراً على وسادة، وفي ثالثة شباكاً مفتوحاً على الغيب.. أحمل صوراً في حاسوبي وصوراً على ظهري لمحطات الانتظار. أنجو من علّة الهويّة واللغات المتكاثرة في رأسي، كلمات تتراكم لأستحضر لساناً غير لساني يعبر بي من المأزق. وأصبّر نفسي أني أعود، أعود في يومٍ ما إلى ذاكرتي القديمة عند شجرة الزيتون.

الرحيل أيضاً حفلة مؤجلة للحزن الجميل، أدفع بقدمَيّ حيثما وصلت كي تتعب وتنسى شكل البيت، وتنسى تلك النسمة اللعينة التي دخلت القلب حين نزلت شارع الوادي وما خرجت منه، وحين وقع قطاري اللعبة على كراج الجيران، ولم أسترده يوماً! جسدي ينقذني من مآلات البقاء والحلول بالأشياء، تمرّ الآن أيامي بلطف، لكن لا أُلقي بالاً كبيراً كالذي كنت ألقيه قبل الرحيل الكبير.

لم يُنجِني الرحيل من الموت ومن يد الجلاد فحسب، بل من نفسي المتشبثة بالأشياء والناس، ولو عادت بي الأيام لربما اخترت رحيلاً أقدم وأقسى، أو رحيلاً لا يحمل التفاتة أو وجهاً أولغة!

أنظر من بعيد لأستشعر حقيقة النجاة والمسافة بيني وبين الأرض والناس. في خفة هائلة أتحرر من أعينٍ وأيدٍ وسجلات وتقارير مروية عن تحركاتي وأفكاري وتطبيقي الاجتماعي للأعراف، عن أفقٍ مسدود وسقفٍ يحني العنق. كأني برحيلي أدفع السقف لأستقيم.

ومع هذا لم يعفني الرحيل من القلب الساخن، ومن التلصّص على الأخبار والكارثة، ولا من عقل يدور في قرص الشمس يبحث عن نجمة يستهدي بها إلى البلاد. يبدو أن قدر الابنة مكتوب على لوح لا يذوب، ستحنّ طالما وُجد الحنين.. في الحل والترحال!

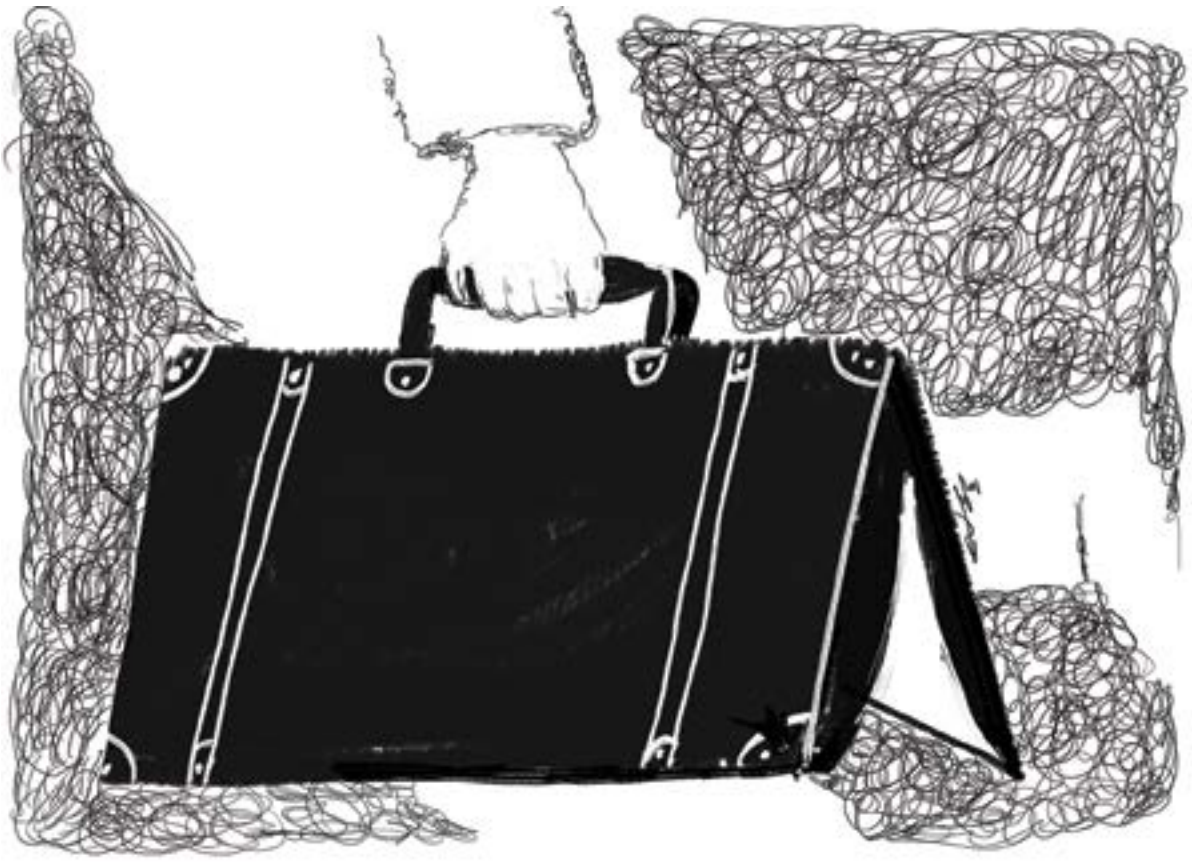

مشاهد يتلوها البدويّ
حسين الضاهر

بشرى البشوات

خرج حسين الضاهر من مدينة تمتد بتاريخها لآلاف السنين، عاصمة العواصم كما سمّاها هارون الرشيد، مدينة البحتري، وعمر أبو ريشة.

خرج حسين من منبج.

يقول حسين عن ذلك: "في سنوات نشأتي الأولى، تنقلت بين عدة محافظات سورية بحكم الدراسة والعمل، ثم إلى بيروت التي أدين لها بالكثير، بيروت احتضنتني وصقلت شخصيتي، لا أرى بأنني أنتمي إلى مكان بعينه، ولم أجد تعريفاً خاصاً لمدينتي أو للوطن.. وقد تكون منبج ساهمت في تكوين البدوي الذي يعيش داخلي، فيظهر أحياناً ليشعرني بالحنين، ويختفي كثيراً".

"صباح الخير
أما زلتِ على قيد اللجوء مثلي؟
إذًا
لو تحملين معي رفات بعض المدن
فقد تعبت
خذي دمشق المكتظة بالطعنات
خبئي "بردى" في حمالة صدرك
وأخرجيه كلما داهمك الصحو
فلتأخذي بيروت شجرة التفاح
التي أنزلتنا إلى أرض الخطايا أول مرة
خذي منبج
أرض الماء والمحل
الفتاة الساذجة التي تذهب دائمًا برفقة الأوغاد
خذي كل البلاد
واتركي لي براعم هذه المدن السعيدة".

ذاً فهو اللجوء "والبلاد التي لا ناقة لك فيها ولا أمل" عن أيّ البلاد تتحدث؟

جميع محاولاتي في التآلف مع هذه البلاد (تركيا) باءت بالفشل، كما فشلت مرارًا بالفرار منها. لذلك وصلت إلى حالة من اللامبالاة اتجاهها، وأظن أنها هي أيضًا لا تبالي بوجودي.

"هذي البلاد لا ناقة لي فيها ولا أمل
فلتكن دافئة
فلتكن باردة مع إشراقة ربيع
فلتكن منتصرة
فليصعد رجالها إلى المريخ
ولتسقط نساؤها من الجنة كفاكهة ناضجة
هي أمور لا تعنيني
أنا الذي سقطت هنا
كتفاحة نخرتها ديدان الحرب"

في مجموعتك الشعرية الأولى "مياه صالحة للقتل" تقول: "أنا حسين الضاهر الأكثر حزنًا في حيّنا، والوجع الوحيد لأهلي" لماذا درب الأحزان هذا؟

لا أحد يتمنى الحزن لنفسه، ولم أختر لنفسي هذا الدرب. لكن إن حللنا هذا الشعور -الحزن- بشكل منطقي، سنجد أنه شعور أصيل متجذر في أنفسنا، على عكس الفرح؛ الذي يأتي على شكل نوبات شبقية متفاوتة التأثير وقصيرة. صحوت في يوم ما لأجد نفسي محاطًا بمفردات غريبة (حرب، موت، رصاص، قارب مطاطي، سلك شائك.. إلخ) هذا ما أجبرني على سلوك درب الأحزان، وإلى الآن لم أجد مخرجًا منه.

"في الكوابيس: أنا اللاهث أمام كلاب المقابر
في طريق اللجوء: أنا الزبد العالق على فم الغريق
في الصور العتيقة: أنا التاريخ المنسي لالتقاطها
في ضبوط الشرطة: أنا الفاعل المتواري تحت أكوام الغبار
في العتمة: أنا كذبة الضوء في آخر النفق
في الخبر العاجل: أنا الجثة المجهولة الهوية
أهز رأسي موافقًا على تحليلكم لطريقة موتي
وأشارككم دفني بكل كياسة"

من بين المفردات الجديدة أيضاً مفردة الثورة السورية، بعد عشر سنوات ماذا أضافت الثورة إلى اللغة التي تكتب بها؟

الأدب مرآة الواقع، والكاتب مهما حلق في فضاءات الخيال يبقى ابن بيئته، وفي المحصلة ستظهر انعكاسات الواقع في كتاباته. الثورة السورية كسرت حدود اللغة التي كان من الممكن أن أتقيد بها لو لم تحصل.

ما الذي أخذك إلى الشعر، ولماذا قصيدة النثر؟

كانت البداية في منبج. عام 2008 على ما أذكر. حين تبرع أحد الأقارب بنشر محاولة لي، في منتدى إلكتروني، وقد لاقت تفاعلاً جيداً، ولأنني كنت أعيش شبه استقرار حينذاك لم أكمل. في وقت لاحق أتبعتها بمحاولات أخرى ثم توقفت. وعندما وصلت تركيا، لم أجد أحدًا أتحدث إليه، كنت وحيدًا بكل ما للكلمة من معنى. فبدأت الكتابة كي لا أجن. وهكذا إلى أن وجدت نفسي هنا بمحض الصدفة. في البدء لم أعرف أن ما أكتبه يسمى "قصيدة نثر". لاحقًا علمت الفوارق والإشكالات الدائرة حولها، لكن الأمر ليس مهمًا بالنسبة إلي.

أما أنا فقد جئت إلى الشعر متأخرًا
بعد أن تفتقت أشجار المصيبة في حقلنا
زهرًا يستحق النواح
فنحت.

في مجموعتك "مياه صالحة للقتل"، تأتي على ذكر اسمك وعمرك أكثر من مرة، ما دلالة ذلك؟

كنت أحاول تعريف الناس بي، وأنني ما زلت على قيد الحياة؛ نجوت بعد حرب ونزوحين.

كان إهداء مجموعتك الأولى "مياه صالحة للقتل"، موجهاً للمرأة في حياتك (الأمّ، الزوجة، البنت) في مجموعتك الثانية "مشاهد يتلوها البدوي" تهدي نصوصك إلى الدنيا. ما هي الدنيا التي ينتمي إليها حسين؟

هي الأنثى أيضًا؛ الأنثى التي تغزل أهدابي بأصابع وردية.

في مجموعتك الثانية "مشاهد يتلوها البدوي" تكثيفها العالي، اللقطات القريبة جداً، بقعة الضوء التي تحمل العادي إلى منصة عرض كاملة، هل هذا مقصود؟

ربما يرى البعض أن مجموعة "مشاهد يتلوها البدوي" هي ظل للمجموعة الأولى "مياه صالحة للقتل"، لكنني أرى أن كل ما كتبته، يعد محاولات للتجريب. إلى الآن لم أجد مساري الخاص الذي سأسير فيه، ومن المؤكد أن أجده. لذا سأبقى أجرب.

هل للشعر وظيفة، وإن وجدت فما هي؟

أعتقد أن وظيفة الشعر تتغير بحسب المراحل التي يمر بها كاتبه، ففي مرحلة ما كان بالنسبة لي حاجة، وفي مراحل أخرى متنفساً، والآن قد أُعرفه على أنه رفاهية.

حصلت على جائزة المعري للفنون الأدبية 2018 وجائزة رابطة الكتاب السوريين 2021.

ماذا تضيف الجوائز إلى رصيد الشاعر؟

يحتاج الكاتب بين الحين والآخر لحافز مادي ومعنوي كي يستمر في مشروعه، وأرى أن الجوائز هي السبيل الأمثل للحصول على هذا الحافز.

أخيرا يستعير حسين الضاهر لسان صديقه أحمد بغدادي ليقول: لحسين الضاهر البدوي" "لا تمت إلا بوقتك"!

وجوه الحضور في "مرايا الغياب" عند فرج بيرقدار

ياسمين نهار

يشكل الصّراع الحادّ والعاصف بين متناقضات الوجود بُعداً حافزاً ومُلهماً لكثير من المبدعين، كالصّراع بين الحياة والموت، وبين الخير والشّر، وبين الحريّة والقيد..

الشاعر فرج بيرقدار عاش هذه الصّراعات وخبر تفاصيلها اليوميّة أكثر من أربعة عشر عاماً في السّجون السّورية، حاول خلال هذه السّنوات أن يجد لغة شعريّة تعادل تلك التّجارب القاسية، وتستوعب آلامه ورؤاه وتطلّعاته إلى التّغيير.

"مرايا الغياب " هو عنوان إحدى مجموعاته الشّعريّة، كتبها وهو في سجن صيدنايا بين عامي 1997ـ 2000 موضوعها الأبرز والأهمّ السّجن السّياسيّ؛ حيث رصد شعريّاً علاقة السّجين بالسّجن والسّجان من جهة، وتطلّع السّجناء إلى الحريّة من جهة ثانية، فلا عجب أن تتكرّر كلمة الحريّة ثلاث عشرة مرّة في هذه المجموعة.

بُعد التمرّد والرّفض في حياته وشعره: لم تكن الحريّة عند شاعرنا مطلباً سياسيّاً فقط؛ بل هي مطلبٌ وجوديّ تجسّد في حياته وشعره، وكما رفض بيرقدار أن يكون أسيراً للسّلطة القمعية أو لمؤسساتها الثّقافيّة التي تهمّش حالات التّمرّد والخروج عن المألوف، رفض أيضاً طُرق التّعبير التّقليديّة والهويّة الإبداعيّة الثّابتة، لذا نراه في حنين دائم إلى هويّة إبداعيّة جديدة؛ لأنّ الإبداع حركة دائمة وكشف مستمرّ:

"كلّ يوم
أقف أمامي
أتأمّلني بأناة
ثمّ أنكرني
وأواصل الحنين
إلى غيري
لعلّي أجدني فيه".

إنّ قصيدة فرج تثير الأسئلة المُقلقة، تدعو المطمئنين إلى الشّكّ، ويمكننا القول إنّها متمرّدة مثله؛ متمرّدة على سلفيّة الكتابة الشّعريّة؛ حين تمنع المبدع من خلق تجربته الخاصّة، ومتمرّدة على الواقع لأنّها ترفض التّكيّف معه، وتصرّ على كشف مظالمه وعيوبه، ومتمرّدة على قارئها لأنّها تهزّ يقينه:

"ما من دليل
ولا يقين
فالقصيدة خارجة عليّ
وخارجة عليكم
وخارجةٌ
حتّى على نفسها".

النّزعة الصّوفيّة في شعره: التجربة الصّوفيّة في شعر فرج لا ترسّخ معتقداً دينيّاً أو تدعو إليه؛ إنّما هي صوفيّة فنيّة أغنت تجربته الشّعريّة ومنحتها أبعاداً خلّاقة؛ فضلاً عن أنّ الشّاعر وظّف هذه التّجربة الغنيّة في رؤية جديدة أخرجتها من بُعدها الدّينيّ إلى بُعد إنسانيّ حارّ أثبت قدرتها على الحياة والتّجدد إبداعيّاً. لئن حرّرت التّجربة الصّوفيّة الإنسان من القيود، بدءاً من القيود التي تعيق حركة الجسد، فقد ساعده تعمّقه في تلك التّجربة على اكتشاف أعماقه ونزوعها إلى الحريّة؛ وليس هذا فحسب، فقد ساعده الشّعر على فضح ما يجري داخل السّجن السّياسيّ:

"صَفوتُ
حتّى أوشكتُ على الماء
وأوشك الماء على الومض
والومضُ على الرّؤيا
والرّؤيا على الكشف
والكشف على الغموض
والغموض على الشّعر
والشّعر على الصمت
والصمت على السّرّ
والسّرّ على الفضيحة
شكراً يا معلمي
أعرف أنّ الطّريق
صار طويلاً ورائي
غير أنني سأعود
إلى حنان ترابي القديم
ولو مشياً
على قلبي".

في هذا النّصّ صفا الشّاعر الرّائي حتّى أوشك أن يصير شفّافاً كالماء، وما الرّؤيا عنده إلّا وسيلة لفضح مساوئ العالم، وقد تجلّى هدفه الأسمى في نصّه الرّؤيويّ السّابق في العودة إلى النّقاء الأوّل والحريّة والبدء حيث لا قيود ولا أسوار، رغم معرفته بوعورة الطّريق.

ويتجلّى البعد الصّوفيّ واضحاً حين يقول:

"يا دينكم!!
كيف أراني
وأنا دائماً معي؟
وإذا ابتعدتُ عني
فكيف أعرفني؟
لا تقولوا لي:
المرآة.
فليس للمرايا
حتى هذه التي أكتبها
إلّا أن تعدّدني
أو تجعلني واحداً
وأنا لست كذلك
بل إنّي..
لستُ على حال أبداً
أبداً
لستُ على حال".

يرى الشّاعر أنّ لكلّ مبدع بُعداً آخر؛ يحضر في أعماقه حضور اتّحاد ووحدة، وحين يتجلّى هذا البعد على صورة شعر؛ لا يريد منه الشّاعر أن يعكس ظاهر نفسه -وإن تعدّدت أشكاله- بل يريد منه أن يعبّر عن خفايا نفسه غير المستقرّة على حال.

صور حضور المرأة في شعره: امرأة فرج بيرقدار هي المرأة الحبيبة/ المرأة الجسد، ويبدو لي أنّ استحضار المرأة/ الجسد داخل السّجن -ولو في فضاء الذّاكرة- هو تشوّف لحياة طبيعيّة وعلاقة تكامليّة بين المرأة والرّجل؛ كلّ طرف فيها يحتاج

الآخر ويكمّله، وهو فعل تحدّ للأفكار المتزمّتة وموقفها من المرأة، وهو فعل تحرّر من كلّ القيود التي تمنع المبدعين من التّعبير عن المرأة، وعن العلاقة بينها وبين الرّجل فنيّاً، بالإضافة إلى كون ذلك الفعل انعتاقاً من أسر مكان ينزف تفاصيل مؤلمة مؤرّقة.

وها هي ذاكرته تغافل محاولات النسيان وتهرب إلى امرأة ما:

"في منتصف النسيان
وربّما في آخره
هربَت ذاكرتي إليها
تلك التي لم تقل في البداية
غيرَ سماءٍ مهجورة
وبنفسجتين غامضتين
وصحراء تنزف سراباً
ولكنّها
صمتاً إثر صمت
وشهيقاً إثر شهيق
وزفيراً إثر زفير
قالت جسدي
وأردفَتْ لُجّةً متلاطمة الأصداء
تنشجُ وتمطر
وتصيحُ من قيعانها:
تعال".

وتجدر الإشارة إلى أنّ شعر الحبّ وشعر الجسد عند شاعرنا دليلٌ على تأكيد شاعرنا فاعلية الأنا وحضورها في مكان لا خصوبة فيه ولا حياة وهو السّجن.

يقول واصفاً الحديث بين جسدين:

"لستُ أعمى القلب
فما من حوار
تضيء بروقُهُ
وتنهمرُ أمطارُهُ
كما بين جسدين".

إنّ صور الشّاعر في هذا النّصّ تعبّر عن ظلال نفسه ولاشعوره الخفيّ؛ وما إضاءة البروق وانهمار الأمطار إلّا تأكيد الخصوبة التي يُحرم السّجين منها فأراد الشّاعر تحقيقها ولو في الخيال.

ومع ذلك لم يحصر بيرقدار المرأة ببعد واحد (بُعد

الجسد) فالمرأة عنده الحبيبة المُلهمة تسير به إلى تيه المعنى؛ لكي يبقى في بحثه المحموم عن دروب جديدة في الإبداع كلّما ظنّ أنّه اهتدى ووصل اكتشف دروباً أكثر جمالاً وأكثر إغواءً:

"ثمّة مكان
اسمه اللامكان
أخذتني إليه
تلك المرأة الشّاهقة
وقالت لي:
يليق بك التيه".

مرايا الغياب والحضور في السّجن: للسجن ظلالٌ قاتمةٌ تجثم على الرّوح، وشاعرنا رآه موتاً أو شيئاً يشبه الموت: "السّجن هو الغياب الأبعد والأعمق والأقصى في الحياة، وما من غياب أشدّ منه وأكثر فداحة سوى الموت. من هنا انسربت تسمية "مرايا الغياب" كعنوان لهذه المجموعة. ويبدو لي أنّ لمرايا الغياب وجهاً آخر هو وجه الحضور: حضور الشّاعر وحضور القصيدة، وكلّما تعمّق بُعد الغياب السّاكن المُفجع ازداد إصرار الشّاعر على استحضار القصيدة التي تُعدّ وجهاً من وجوه الحياة واندفاعها الحارّ.

هكذا واجه الشّاعر كلّ أشكال التعذيب والقمع بأكثر الأشياء حميميّة وحيّويّة وحريّة؛ واجهها جميعاً بالشّعر.

والزّمن في السّجن يمتدّ يائساً امتداد الصحراء، يتشابه تشابه كثبانها، غير أنّ الشّاعر يحاول أن يثنيَ عضد هذا الزّمن ليبقى هو وقصيدته على قيد الحضور، على قيد الحياة:

"الأزمنة متضاربة
والأمكنة أيضاً
وحتّى الصّلوات
غير أنّ القصيدة وقلبي
يدقّان
ويدقّان
ياااااا..
لأبوابكم المغلقة!!".

وحين يستبدّ الوقت الكئيب قد تنفصم الذات عن نفسها لأنّها تعجز أحياناً عن ملء هذا الفراغ الرّهيب الماثل في المكان، فلا يراه الشّاعر إلّا شكلاً من أشكال الغياب:

"زمنٌ بلا مواعيد
ومكانٌ
بلا جهات.
أيّتها المرأة
الجارحة كبرق
الرّاعفة كأغنية
اذهبي
فما من شيء
حاضر هنا
غير الغياب".

هكذا رسم لنا فرج بيرقدار مراياه ممزوجة بروحه، بعذاباته، بتناقضاته الحادّة، وما زال في جعبته الكثير من الألوان الممزوجة بالدّم والرّماد والحكايا عن أولئك الذين ينحرون أحلام الشّعوب بلا ندم.

"مرايا الغياب" المجموعة الشّعريّة التي هرّبها الشّاعر من سجن صيدنايا مكتوبةً على أوراق السّجائر تُترجم إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانيّة والسلوفينية والإيطالية، وتصبح مشروعاً غنائياً بلغات عدّة.

هي مرايا تفضح معاناة المعتقلين أثناء تغريبتهم في السّجون السّورية إلّا أنّها في عمقها مرايا فضاءين وضّاءين متداخلين هما: فضاء الشّعر، وفضاء الحريّة.